الله تعالى منفردا به لم يجعل فيه أمراً ولا نهياً لا يعذب عليه، لأنه لم يجعل للعبد مدخلا فيه بشهوة ولا فعل، وإن ما قضاه على العبد مما أدخله فيه بقصده وشهوته عذّبه عليه، وهذا من شؤم النفس وتكدير الخلُق، أنها إذا أدخلت فى شئ انقلب عليها شرّه. والأمة مجتمعة على قول ما شاء الله كان، ومالم يشأ لم يكن. واجتمعت على قول لاحوْل ولا قوّة إلاّ بالله، فهذا عام فى كل شئ ليس فى بعض الأشياء دون بعض. والحول فى اللغة هو الحركة، والعرب تقول للشخص يبدومن بعيد ويُظَن أنه إنسان أو شجرة أو صخرة، انظروا إليه فإنْ كان يحول فهو إنسان، أى يتحرك. والقوّة هو الثبات بعد الحركة، وهو أول الصبر، حتى يظهر الفعل بقوّة الله تعالى. وقد روينا فى تفسير ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لاحول عن معصية الله إلاّ بعصمة الله، ولا قوّة على طاعة الله إلاّ بعون الله. وهذا التفصيل فى هذه المعانى من الأحكام هو ظاهر العلم، وفرْض القَدَر، وفحوى التنزيل والشرع، والجبر للملك الجبّار يُجبر خلقه على ما شاء، كما خلقهم لما شاء، ويُردْهم إلى ماشاء، كما ينشئهم فيما يشاء، فالحكم لله العلىّ الكبير، الواحد القهار، يقهر عباده كيف شاء، ويجرى عليهم ما يشاء، له الحُجة البالغة، والعزة القاهرة، والقدرة النافذة، والمشيئة السابقة، بوصف الربوبية، وبحكم الجبرية، وعليهم الاستسلام والانقياد والطاعة والاجتهاد، طوعا وكرها، بوصف العبودية، وبحق المَلَكة، إنْ كان الله يريد أنْ يغويكم هو ربكم، إنْ تعذبهم فإنهم عبادك، ولو شاء لهداكم أجمعين، لله الأمر من قبل ومن بعد.

الفصل الحادى والثلاثون

فيه كتاب العلم وتفصيله واوصاف العلماء، وذكر فضل علم المعرفة على سائر العلوم، وكشف طرق العلماء من السلف الصالح، وذكر بيان تفضيل علوم الصمت وطريق الورعين فى العلم، والفرق بين العلم الظاهر والباطن، وبين علماء الدنيا وعلماء الآخرة، وفضل اهل المعرفة على علماء الظاهر، وذكر علماء السوء الآكلين بعلومهم الدنيا، ووصف العلم وطريق التعليم، وذمّ ما احدثه المتأخرون من القصص والكلام، وباب ذكر ما احدث الناس من القول والفعل فيما بينهم مما لم يكن عليه السلف، وبيان فضل الايمان واليقين على سائر العلوم، والتحذير من الراى

معنى قول النبى صلى الله عليه وسلم طلب العلم فريضة على كل مسلم، وفى الحديث الآخر أطلبوا العلم ولو بالصين فإن طلب العلم فريضة على كل مسلم. قال عالمنا أبو محمد سهل رحمه الله: أراد بذلك علم حال، يعنى علم حال العبد من مقامه الذى أقيم فيه، بأن يعلم

أحدكم حاله الذى بينه وبين الله عز وجل فى دنياه وآخرته خاصة، فيقوم بأحكام الله تعالى عليه فى ذلك.

وقال بعض العارفين معناه طلب علم المعرفة وقيام العبد بحكم ساعته وما يُقتضى منه فى كل ساعة من نهاره. وقال بعض علماء الشام إنما عنى به طلب علم الإخلاص، ومعرفة آفات النفس ووساوسها، ومعرفة مكايد العدو وخدعه وغروره، وما يصلح الأعمال ويفسدها، فريضة كله من حيث كان الإخلاص فى الأعمال فريضة، ومن حيث أُعلِمَ بعداوة إبليس ثم أُمِر بمعاداته. وذهب إلى هذا القول عبد الرحيم بن يحيى الأرموى ومن تابعه. وقال بعض البصريين فى معناه طلب علم القلوب ومعرفة الخواطر وتفصيلها فريضة، لأنها رسل الله تعالى إلى العبد، ووسواس العدوّ والنفس، فيستجيب لله تعالى بتنفيذ ما منه إليه، ومنها ابتلاء الله تعالى للعبد واختيار مقتضيه مجاهدة نفسه فى نفيها، ولأنها أول النيّة التى هى أول كل عمل، وعنها تظهر الأفعال، وعلى قدرها تضاعف الأعمال، فيحتاج أن يفرّق بين لَمّة الملك ولمة العدوّ، وبين خاطر الروح ووسوسة النفس، وبين علم اليقين وقوادح العقل، ليميز بذلك الأحكام. وهذا عند هؤلاء فريضة، وهو مذهب مالك بن دينار وفرقد السبخى وعبد الواحد بن زيد وأتباعهم من النسّاك. وقد كان الحسن البصرى يتكلم فى ذلك وعنه حملوا علوم القلوب. وقال عبّاد أهل الشام معناه طلب علم الحلال فريضةٌ، إذ قد أمر الله تعالى به وأجمع المسلمون على تفسيق آكل الحرام. وقد جاء فى خبر مفسرٍ طلبُ الحلال فريضة بعد الفريضة. ومالَ إلى هذا القول إبراهيم بن أدهم ويوسف بن أسباط ووهيّب بن الورد وحبيب بن حرب. وقال بعض هذه الطائفة من أهل المعرفة معناه: طلب علم الباطن فريضة على أهله. قالوا وهذا مخصوص لأهل القلوب ممن استُعمل به واقتُضى منه دون غيره من عوام المسلمين، لأنه جاء فى لفظ الحديث تعلموا اليقين. فمعناه اطلبوا علم اليقين، وعلم اليقين لا يوجد إلاّ عند الموقنين، وهو من أعمال الموقنين المخصوص فى قلوب العارفين، وهو العلم النافع الذى هو حال العبد عند الله تعالى، ومقامه من الله تعالى كما شهد له الخبر الآخر فى قوله صلى الله عليه وسلم، وعلم باطن فى القلب، وهو العلم النافع. فهذا تفسير ما أُجمل فى غيره.

وقال جندُب كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيعلمنا الإيمان ثم يعلمنا القرآن فازددنا إيمانا، وسيأتى زمان قوم يتعلمون القرآن قبل الإيمان، يعنى تعلمنا علم الإيمان. وهذا مذهب نسّاك أهل البصرة. وقال بعض السلف إنما معناه طلب علم ما لم يسع جهله من علم التوحيد وأصول الأمر والنهى والفرق بين الحلال والحرام، إذ لا غاية لسائر العلوم بعد ذلك،

وكلها يقع عليه اسم «علم» من حيث هى معلومات. ثم قد أجمعوا أن ليس «تعليم» ما زاد على ما ذكرناه فرضا، وإنما فيه فضل أو ندب. وقال بعض فقهاء الكوفة معناه طلب علم البيع والشراء والنكاح والطلاق، وإذا أراد الدخول فيه افتُرض عليه مع دخوله فى ذلك طلب علمه، لقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه لا يتجر فى سوقنا إلاّ من تفقّه، وإلاّ أكل الربا شاء أم أبى. وكما قيل تفقّه ثم اتّجر. ومال إلى هذا سفيان الثورى وأبو حنيفة وأصحابهما.

وقال بعض المتقدمين من علماء خراسان هو أن يكون الرجل فى منزله، فيريد أن يعمل شيئا من أمر الدين أو يخطر على قلبه مسئلة لله سبحانه وتعالى فيها حكم وتعبد، وعلى العبد فى ذلك اعتقاد أو عمل فلا يسعه أن يسكت على ذلك، ولا يجوز له أن يعمل فيه برأيه ولا يحكم بهواه، فعليه أن يلبس نعليه ويخرج فيسأل عن أعلم أهل بلده فيسأله عن ذلك عند النازلة، فهذا فريضة. وحكى هذا القول عن ابن المبارك وبعض أصحاب الحديث. وقال آخرون يعنى طلب علم التوحيد فرض، وإنما اختلفوا فى كيفية الطلب وماهية الإصابة، فمنهم من قال من طريق الاستدلال والاعتبار، ومنهم من قال من طريق البحث والنظر، ومنهم من قال من طريق التوفيق والأثر. وقالت طائفة من هؤلاء إنما أراد طلب علم الشبهات والمشكلات إذا سمعها العبد وابتُلى بها، وقد كان يسعه ترك الطلب إذا كان غافلا عنها على أصل التسليم ومعتقد جملة المسلمين، لا يقع فى وهمه ولا يحيك فى صدره شىء من الشبهات، فيسعه ترك البحث، فإذا وقع فى سمعه شىء من ذلك ووقر فى قلبه، ولم يكن عنده تفصيل ذلك وقطعُه ومعرفة تمييز حقه من باطله، لم يَحِلّ له أن يسكت عليه لئلا يعتقد باطلا أو ينفى حقا، فافتُرض عليه طلب ذلك من العلماء به فيستكشفه حتى يكون على اليقين من أمره، فيعتقد من ذلك الحق وينفى الباطل. ولا يقعد عن الطلب فيكون مقيما على شبهة فيتبع الهوى، أو يكون شاكًا فى الدين فيعدل عن طريق المؤمنين، أو يعتقد بدعة فيخرج بذلك عن السنّة ومذهب الجماعة وهو لا يعلم. ولهذا المعنى كان أبو بكر الصدّيق رضى الله عنه يقول فى دعائه اللّهم أرِنَا الحق حقا فنتبعه، وأرنا الباطل باطلا فنجتنبه، ولا تجعل ذلك متشابها علينا فنتّبع الهوى. وهذا مذهب أبى ثور إبراهيم بن خالد الكلبى وداود بن على والحسين الكرابيسى والحارث بن أسد المحاسبى ومن تابعهم من المتكلمين. فهذه أقوال العلماء فى معنى هذا الخبر. حكينا ذلك عن علمنا بمذاهبهم على معنى مذهب كل طائفة، واحتججنا لكل قول، فالألفاظ لنا والمعنى لهم، وهذا كله حسن ومحتمل، وهؤلاء كلهم وإن اختلفوا فى تفسير الحديث بألفاظ فإنهم متقاربون فى المعنى، إلاّ أهل الظاهر منهم فإنهم حملوه على ما يعلمونه، وأهل الباطن تأوّلوه على علمهم. ولعمرى إن

الظاهر والباطن علمان لا يستغنى أحدهما عن صاحبه بمنزلة الإسلام والإيمان، مرتبط كل واحد بالآخر كالجسم والقلب، لا ينفك أحدهما عن صاحبه.

هؤلاء المختلفون فى الأقوال مجمعون أنه صلى الله عليه وسلم لم يرد بذلك طلب علم الأقضية والفتاوى، ولا علم الاختلاف والمذاهب، ولا كُتُب الأحاديث مما لا يتعين فرضه وإن كان الله تعالى لا يخلى من ذلك من يقيمه بحفظه. والذى عندنا فى حقيقة معنى هذا الخبر والله أعلم أن قوله صلى الله عليه وسلم طلب العلم فريضة يعنى علم هذه الفرائض الخمس التى بنى الإسلام عليها من حيث لم يفترض على المسلمين غيرها، ثم إن العمل لا يصح إلاّ بعلمه فأوّل العمل العلم به، فصار علم العمل فرضا من حيث افتُرض العمل. فلّما لم يكن على المسلمين فرض من الأعمال إلاّ هذه الخمس فصار طلب علم هذه الخمس، فرضا لأنه فرْض الفرْض. وعلم التوحيد داخل فيها لأنه فى أوّله شهادة أن لا إله إلاّ الله بإثبات صفاته المتصلة بذاته، ونفى صفات سواه المنفصلة عن إياه، كله داخل فى علم شهادة أن لا إله إلاّ الله. وعلم الإخلاص داخل فى صحة الإسلام، إذ لا يكون مسلما إلاّ بإخلاص العمل، لقوله صلى الله عليه وسلم ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم- إخلاص العمل لله – فبدأ به واشترطه للإسلام. والأصل فى هذا أنه لم يُرد صلى الله عليه وسلم على كل ما جاز أن يكون معلوما بإجماع الأمة، أنه لم يعن بذلك علم الطب، أو علم النجوم، ولا علم النحو أو الشعر أو المغازى، وهذه تسمى علوما لأنها تكون معلومة، وأربابها علماءبها. إلاّ أن الشرع لم يُرد بالأمر بمقتضاها. والأمة مجمعة أيضا أنه لم يُرد بذلك علم الفتيا والقضاء، ولا علم افتراق المذاهب واختلاف الآراء، وهذه تسمى علوما عند أهلها، وبعضها فرض على الكفاية وكلها ساقطة عن الأعيان. والخبر جاء بلفظ العموم بذكر الكليّة وبمعنى الاسم، فقال طلب العلم فريضة، ثم قال على كل مسلم بعد قوله اطلبوا العلم، فكان هذا على الأعيان فكأنه على ما وقع عليه اسم العلم، ومعناه المعهود المعروف بإدخال التعريف عليه فأشير بالألف واللام إليه. فإذا بطلت هذه الوجوه صحّ أن قوله صلى الله عليه وسلم طلب العلم فريضة على كل مسلم، أى طلب علم ما بُنى الإسلام عليه، فافترض على المسلمين علمه فريضة، بدليل قوله صلى الله عليه وسلم للأعرابى حين سأله أخبرنى ماذا افترض الله تعالى علىّ، وفى لفظ آخر أخبرنا بالذى أرسلك الله تعالى إلينا به، فأخبره بالشهادتين والصلوات الخمس والزكاة وصوم رمضان وحج البيت، فقال هل علىّ غيرها فقال لا، إلاّ أن تطّوع، فقال والله لا أزيد عليه شيأ ولا أنقص منه شيأ، فقال أفلح ودخل الجنة إنْ صدق. فكان علم هذه الخمس فريضة من حيث كان معلومه فريضة، إذ لا عمل إلاّ

بعلم. وقد قال عز وجل إلاّ من شهد بالحق وهم يعلمون، وقال فى مثله حتى تعلموا ما تقولون، وقال هل عندكم من علم فتُخرجوه لنا إنْ تتّبعون إلاّ الظن، وقال بل اتّبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدى من أضل الله، وقال تعالى ولا تتّبع أهواء الذين لا يعلمون، إنهم لن يغنوا عنك من الله شيأ، وقال سبحانه وتعالى فاعلموا أنما أُنزل بعلم الله وأن لا إله إلاّ هو، وقالوا فاسألوا أهل الذكر إنْ كنتم لا تعلمون. فهذه الآى افترض الله فيها طلب العلم، وذلك الخبر الذى جاء فى أبنية الإسلام الخمسة افترض رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه هذه الأعمال، ثم قال مُجمِلاً طلب العلم فريضة، ثم وكدّه بقوله صلى الله عليه وسلم على كل مسلم، فكان تفسير ذلك وتفصيله أن علم هذه الخمس التى هى بِنْية الإسلام فرض لأجل فرضها.

وقد روينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من طريق مرسل أنه مرّ برجل والناس مجتمعون عليه فقال ما هذا، فقالوا رجل علاّمة، فقال بماذا، قالوا بالشِعْر والانساب وأيام العرب، فقال هذا علم لا يضر جهلُه. وفى لفظ آخر علم لا ينفع وجهل لا يضر. وروينا فى الخبر أن من العلم جهلاً وأن من القول عيّا. وفى الخبر الآخر قليل من التوفيق خير من كثير من العلم. وفى خبر غريب كل شىء يحتاج إلى العلم، والعلم يحتاج إلى التوفيق. والخبر المشهور قوله صلى الله عليه وسلم أعوذ بك من علِم لا ينفع، فسمّاه علماً إذ له معلوم، وأن أصحابه علماء عند أصحابهم، ثم رفع المنفعة عنهم واستعاذ بالله منه. وقد روينا فى خبر أن الشيطان ربما سبقكم بالعلم، قلنا يارسول الله كيف يسبقنا بالعلم، قال يقول اطلب العلم ولا تعمل حتى تعلم، فلا يزال فى العلم قائلا وللعمل مسوفا حتى يموت وما عمل. ففى هذا الخبر دليلان، أحدهما أنه أُريد به طلب فضول العلم الذى لا نفع له فى الآخرة ولا قُربة فى طلبه من الله، والثانى أن العلم المفضّل المندوب إليه إنما هو الذى يقتضى العمل لأن النبى صلى الله عليه وسلم لا يأمر بعمل بغير علم، ولا يكره طلب علم للعمل به. ألاّ تسمع إلى قوله صلى الله عليه وسلم فى الخبر الآخر فَضْلٌ من علمٍ أحبُ إلىّ من فضلٍ من عمل، وخير دينكم الورع.

ذكر فضل علم المعرفة واليقين على سائر العلوم وكشف طريق علماء السلف الصالح من علماء الدنيا والآخرة

قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ألوف من صحابته كلهم علماء بالله فقهاء عن الله تعالى، أهل رضوان من الله تعالى، ولم ينصب نفسه إلى الفتيا ولا حُملت عنه الأحكام والقضايا إلاّ بضعة عشر رجلا. وكان ابن عمر إذا سئل عن الفتيا قال إذهب إلى الأمير الذى تقلد أمور الناس فضعها فى عنقه. وروى ذلك عن أنس ثم جماعة من الصحابة والتابعين

بإحسان، وكان ابن مسعود يقول إنّ الذى يُفتى الناس فى كل ما يستفتونه لمجنون. وكان ابن عمر رضى الله عنهما يُسأل عن عشر مسائل فيجيب عن مسئلة ويسكت عن تسعة. وكان ابن عباس علّى ضد ذلك. كان يُسئل عن عشرة فيجيب فى تسعة ويسكت عن واحدة. وكان من الفقهاء من يقول لا أدرى، أكثر من أن يقول أدرى. منهم **سفيان الثورى ومالك بن أنس وأحمد بن حنبل والفضيل بن عياض وبشر بن الحارث** رضى الله عنهم. وكانوا فى مجالسهم يجيبون عن بعض ، ولم يكونوا يجيبون فى كل ما يُسئلون عنه.

وروينا عن عبد الرحمن بن أبى ليلى قال أدركت فى هذا المسجد مائة وعشرين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، مامنهم من أحد يُسئل عن حديث أو فتيا إلاّ ودّ أنّ أخاه كَفَاه ذلك. وفى لفظ آخر كانت المسئلة تعرض على أحدهم فيردها إلى الآخر، ويردها الآخر حتى ترجع إلى الذى سأل عنها أول مرة. ورُوِى عن ابن مسعود وابن عمر وغيرهما من التابعين، وقد روينا مسنداً: لا يفتى الناس إلاّ ثلاثة، أميرٌ أو مأمور أو متكلف. وتفصيل ذلك أن الأمير هو الذى يتكلم فى علم الفُتيا والأحكام، كذلك كان الأمراء يُسئلون ويُفتون. والمأمور الذى يأمره الأمير بذلك فيقيمه مقامه ويستعين به لشُغله بالرعية. والمتكلف هو القاصّ الذى يتكلم فى القِصص السالفة ويقص أخبار من مضى، لأن ذلك لا يُحتاج إليه فى الحال ولم يُندب إليه من العلوم، وقد تدخله الزيادة والنقصان والاختلاف، فلذلك كُره القصص فصار القاص من المتكلفين. وقد جاء فى لفظ الحديث الآخر بتأويل معناه، لا يتكلم على الناس إلاّ ثلاثة: أمير أو مأمور أو مُراء. فكان قولهم أمير هو المفتى فى الأقضية والأحكام كما ذكرناه آنفا. ومعنى مأمور هو العالم بالله عز وجل، الزاهد فى الدنيا، يتكلم فى علم الإيمان واليقين، وفى علم القرآن والحث على مصالح أعمال الدين، بأمر من الله تعالى، أذنَ الله تعالى له فى ذلك بقوله تعالى وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب ليبيننّه للناس ولا يكتمونه. وقد كان أبو هريرة وغيره يقولون لولا آيتان فى كتاب الله تعالى ما حدثتكم بحديث أبدا، ثم يتلو هذه والآية التى قبلها ويقول، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أتى الله تعالى عالِما علما إلاّ أخذ عليه من الميثاق ما أخذ على النبيين، أن يُبيِّنه ولا يكتمه. وأما المُرائى فهو المتكلم فى علوم الدنيا، الناطق عن الهوى، يستميل بذلك قلوب الناس ويجتلب بكلامه المزيد من الدنيا والرفعة فيها. وقال بعض العلماء كان الصحابة والتابعون بإحسان يتدافعون أربعة أشياء: الأمانة والوديعة والوصية والفتيا. وقال بعضهم كان أسرعهم إلى الفتيا أقلهم علما، وأشدهم دفعا لها وتوقفاً عنها أورعهم. وقال بعض السلف كان شغل الصحابة والتابعين بإحسان فى خمسة أشياء:

قراءة القرآن، وعمارة المساجد، وذكر الله تعالى، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. وفى الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كل كلام بن آدم عليه لا له إلاّ ثلاثا، أمر بمعروف أونهى عن منكر أو ذكر الله تعالى. وقال الله أصدق القائلين لا خير فى كثير من نجواهم إلاّ من أَمَرَ بصَدَقة او معروفٍ أو إصلاحٍ بين الناس. ورأى بعض أصحاب الحديث بعض فقهاء الكوفة من أهل الرأى بعد موته فى المنام، قال فقلتُ له ما فعلتَ فيما كنتَ عليه من الفتيا والرأى، قال فكَرِه وجهَه وأعرض عنى وقال: ما وجدناه شيأً وما حمدنا عاقبته. وحدّثونا عن علىّ بن نصر بن علىّ الجهضمى عن أبيه قال رأيت الخليل بن أحمد فى النوم بعد موته، فقلت ما أجد أعقل من الخليل لأسالنّه، فقال لى أرأيتَ ما كنّا فيه؟ فإنى لم أر شيأً ما رأيت أنفع من قول: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلاّ الله والله اكبر.

وحدثونا عن بعض الأشياخ قال: رأيت بعض العلماء فى المنام، فقلت له ما فعلَتْ تلك العلوم التى كنا نجادل فيها ونناظر عليها، قال فبسط يده ونفخ فيها وقال طاحت كلها هباء منثورا. ما انتفعت إلاّ بركعتين حَصَّلتا لى فى جوف الليل. وحُدِّثتُ عن أبى داود السجستانى قال: كان بعض أصحابنا كثير الطلب للحديث، حسن المعرفة به، فمات، فرايته فى المنام، فقلت ما فعل الله بك، فسكت فأعدت عليه، فسكت، فقلت غفر الله لك، قال لا، قلت لِمَ، قال الذنوب كثيرة والمناقشة دقيقة، ولكن قد وُعدت بخير، وأنا أرجو خيرا. قلت أى الأعمال وجدتها فيما هناك أفضل؟ قال قراءة القرآن والصلاة فى جوف الليل. قلت فأيما أفضل؟ ما كنتَ تقرأ أو تُقرىء؟ فقال ما كنت أقرأ. قلت فكيف وجدت قولنا فلان ثقة وفلان ضعيف؟ فقال إنْ خلُصتْ فيه النية لم يكن لك ولا عليك.

وحُدِّثتُ عن بعض الشيوخ قال، حدّثنى أحمد بن عمر الخاقانى قال، أُريت فى منامى كانّى فى طريق أمضىِ، إذ صادفنى رجل، فاقبل علىّ وهو يقول وإنْ تطعْ أكثَر من فى الأرض يضلّوك عن سبيل الله. فقلت له لى تعنى، فقال لك ولذاك الذى خلفَك. فالتفتُ فإذا سرِّى (السقطى) رحمه الله، فاعرضت عن الرجل وأقبلت على السرى، وقلت هذا استاذنا ومؤدبنا الذى كان يؤدبنا فى الدنيا، ثم قلت له يا أبا الحسن، إنك قد صرتَ إلى الله تعالى فاخبرنا باى عمل تقبّله الله تعالى، فاخذ بيدى ثم قال تعال، فجئت أنا وهو إلى بِنْيةٍ مثل الكعبة، فوقفنا إلى جانبها، إذ أشرف علينا من البنية شخص فاضاء ذلك الموضع منه، فاوما سرى إليه وأشالنى نحوه، وكان سرى قصيرا وأنا أيضا قصير، فمدّ ذلك الشخص الذى كان فوق البنية يده فأخذنى فشالنى إليه، فلم أقدر أفتح عينىّ من أنوار كانت فى ذلك المكان، ثم قال لى قد

سمعتُ كلامك مع الشيخ. كلُ خُلُقٍ فى القرآن محمود تفعله، وكل خلق فى القرآن مذموم تنتهى عنه، وحسبك هذا.

وقد حدثونا عن سرّى السقطى قال، كان شاب يطلب علم الظاهر ويواظب عليه، ثم ترك ذلك وانفرد، واشتغل بالعبادة، فسألت عنه فإذا هو قد اعتزل الناس وقعد فى بيته يتعبد، فقلت له قد كنتَ حريصا على الطلب لعلم الظاهر فما بالك انقطعت، قال رأيت فى النوم قائلا يقول لى كم تُضيّع العلم ضيّعك الله، فقلت إنى لأحفظه، فقال إنّ حفظ العلم العمل به، فتركتُ الطلب وأقبلتُ على النظر فيه للعمل.

وقد كان ابن مسعود رضى الله عنه يقول ليس العلم بكثرة الرواية، وإنما العلم الخشية. وقال غيره من الفقهاء إنما العلم نورٌ يقذفه الله تعالى فى القلب. وكان الحسن البصرى رضى الله عنه يقول اعلموا ما شئتم أن تعملوا، فوالله لا يؤجركم الله تعالى عليه حتى تعملوا، فإن السفهاء همتهم الرواية، وإن العلماء همتهم الرعاية. وروينا عنه أيضا أنه قال إن الله لا يعبأ بذى قول ورواية، إنما يعبأ بذى فهم ودراية. وقال أبو حُصَيْن إن أحدهم ليُفتى فى مسئلة لو وردت على عمر بن الخطاب رضى الله عنه لجمع لها أهل بدر. وقال غيره يُسأل أحدهم عن الشىء فيسرع للفتياولو سئل أهل بدر عنها لأعضلتهم. وقال عبد الرحمن بْن يحيى الأسود وغيره من العلماء إن علم الأحكام والفتاوَى كان الولاة والأمراء يقومون به وترجع العامة إليهم فيه، ثم ضعف الأمر وعجزت الولاة عن ذلك لميلهم إلى الدنيا وشغلهم بالحروب عنها،فصاروا يستعينون على ذلك بعلماء الظاهر وبالمُفتين فى الجوامع، فكان الأمير إذا جلس للمظالم قعد عن يمينه وشماله مُفتيان يَرجع إليهما فى القضاء والأحكام، ويأمر الشُرْط بمثل ذلك، فكان من الناس من يتعلم علم الفتيا والقضاء، ليستعين بهم الولاة على الأحكام والقضاء، حتى كثر المفتون رغبةً فى الدنيا وطلباً للرياسة، ثم اختلف الأمر بعد ذلك حتى تَركت الولاة الاستعانة بالعلماء. ومما يدلُك على ذلك حديث عمر رضى الله عنه حيث كتب إلى ابن مسعود عُقبة بن عامر ألَمْ أُخبَر أنك تُفتى الناس ولستَ بأمير ولا مأمور. وفى حديث أبى عامر الهروى قال حججت مع معاوية فلما قَدِمنا مكة حُدِّث عن رجل يقضى ويُفتى الناس مولى لبنى مخزوم، فأرسل إليه، فقال أمرتَ بهذا، قال لا، قال فما حمَلك عليه، قال نُفتى وننشر علما عندنا، فقال معاوية لو تقدمتَ إليك قبل يومى هذا لقطعتُ منك طابقا ثم نهاه.

ولم يكونوا يقولون ذلك فى علم القلوب ولا علم الإيمان واليقين، بل قد كتب عمر إلى أمراء الأجناد احفظوا ما تسمعون من المطيعين فإنهم تُجلَّى لهم أمور صادقة. وقد كان عمر رضى

الله عنه يجلس إلى المريدين فيستمع إليهم. وفى الخبر إذا رأيتم الرجل قد أوتى صمتا وزُهدا فاقتربوا منه فإنه تلقّى الحكمة. وقال بعض أصحاب الحديث رأيت سفيان الثورى حزينا فسألته، فقال وهو بَرِمٌ ما صرنا إلاّ متجراً لأبناء الدنيا، قلت وكيف، قال يلْزَمنا أحدهم حتى إذا عرف بنا وحمل عنا جُعل عاملا أو جابيا أو قهرمانا. وكان الحسن يقول يتعلم هذا العلم قوم لا نصيب لهم منه فى الآخرة، يحفظ الله تعالى بهم العلم على الأمة لئلا يضيع. وقال المأمون رحمه الله لولا ثلاث لخَربت الدنيا، لولا الشهوة لانقطع النسل، ولولا حب الجمع لبطلت المعايش، ولولا حب الرياسة لذهب العلم. فهذا كله وصف علماء الدنيا وأهل علم الألسنة، وأما علماء الآخرة وأهل المعرفة واليقين فإنهم كانوا يهربون من الأمراء ومن أتباعهم وأشياعهم من أهل الدنيا، وكانوا ينتقصون علماء الدنيا ويطعنون عليهم ويتركون مجالستهم.

وقال ابن أبى ليلى أدركت فى هذا المسجد مائة وعشرين من الصحابة ما سُئل أحدهم من حديث ولا استُفتى فى فتيا إلاّ ودّ أن صاحبه قد كَفَاه ذلك. وقال مرة أدركتُ ثلثمائة يُسئل أحدهم عن الفتيا أو الحديث فيرد ذلك إلى الآخر، ويحيل الآخر على صاحبه، وكانوا يتدافعون الفتيا ما بينهم، ولم يكونوا إذا سئُل أحدهم عن مسئلة من علم القرآن أو علم اليقين والإيمان يُحيل على صاحبه، ولا يسكت عن الجواب. وقد قال الله سبحانه فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون، فهم أهل الذكر لله تعالى وأهل التوحيد والعقل عن الله تعالى. ولم يكونوا يتلقنون هذا العلم دراسةً من الكتب، ولا يتلقاه بعضهم من بعض بالألسنة، إنما كانوا أهل عمل وحُسن معاملات، فكان أحدهم إذا انقطع إلى الله تعالى واشتغل به واستعمله المولى بخدمته بأعمال القلوب، وكانوا عنده فى الخلوة بين يديه لا يذكرون سواه، ولا يشتغلون بغيره، فإذا ظهروا للناس فسألوهم ألهمهم الله تعالى رشدهم، ووفّقهم لسديد قولهم، وآتاهم الحكمة ميراثاً لأعمالهم الباطنة عن قلوبهم الصافية وعقولهم الزاكية وهممهم العالية، فآثرهم بحُسن توفيقه أنْ ألهمهم حقيقة العلم وأطلعهم على مكنون السّر، حين آثروه بالخدمة وانقطعوا إليه بحسن المعاملة، فكانوا يجيبون عمّا عنه يسألون، أثرةَ الله تعالى لهم، وبجميل أثره عندهم، فتكلموا بعلم القُدرة وأظهروا وصف الحكمة، ونطقوا بعلوم الإيمان وكشفوا بواطن القرآن، وهذا هو العلم النافع الذى بين العبد وبين الله تعالى، وهو الذى يلقاه به ويسأله عنه ويُثيبه عليه، وهو ميزان جميع الأعمال. وعلى قدر علم العبد بربه تعالى ترجح أعماله وتضاعف حسناته، وبه يكون عند الله تعالى من المقرّبين لأنه لديه من الموقنين. فهم أهل الحقائق الذين وصفهم علىٌّ عليه السلام، وفضلّهم على الخلائق فقال فى وصفهم، القلوب أوعية وخيرها أوعاها، والناس ثلاثة، عالمٌ

ربّانى، ومتعلمٌ على سبيل نجاة، وهمجٌ رعاع اتباعُ كل ناعق، يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجؤا إلى ركنٍ وثيق. العلم خيرٌ من المال. العلمُ يحرُسك وأنت تَحرس المال والعلم يزكيه العمل، والمال تنقصه النفقة. محبة العلم ديْن يُدان به، يكسبه الطاعة فى حياته وجميل الأحدوثة بعد موته. العلم حاكم والمال محكوم عليه. ومنفعة المال تزول بزواله. مات خُزّان الأموال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقى الدهر. ثم تنفّس الصُعَداء فقال هاه إن ههنا علما جماً لو أجِدُ له حَمَلَةً، بلى، أجدُ لَقِناً غيرَ مأمون يستعمل الدين فى طلب الدنيا، ويستطيل بنِعَم الله تعالى على أوليائه، ويستَظهر بحُججه على خلقه، أو منقاداً لأهل الحق ينزرع الشك فى قلبه بأوّل عارض من شُبهة، لا بصيرةَ له، وليسا من رعاة الدين فى شىء، إلاّ ذا ولا ذاك، فمنهوم باللذة سلِس القياد فى طلب الشهوات، أو مُغْرَى بجمع الأموال والادخار منقاد لهواه، أقرب شبها بهما الأنعام السائمة. اللّهم هكذا يموت العلم إذا مات حاملوه، بل لا تخلو الأرض من قائم لله تعالى بحجة، إمّا ظاهر مكشوف وإما خائف مقهور، لئلا تبطل حجج الله تعالى وبيناته. وأين أولئك الأقلون عدداً الأعظمون قدرا، أعيانهم مفقودة وأمثالهم فى القلوب موجودة، يحفظ الله تعالى بهم حججه حتى يُودعها نظراءهم ويزرعوها فى قلوب أشباههم، هجم بهم العلم على حقيقة الأمر فباشروا روح اليقين، فاستلانوا ما استوعر منه المترفون، وأنِسوا بما استوحش منه الغافلون. صحبوا الدنيا بأبدانٍ أرواحها معلقة بالمحل الأعلى. أولئك أولياء الله مِنْ خلقه وعُمّاله فى أرضه والدعاة إلى دينه – ثم بكى وقال واشوقاه إلى رؤيتهم!!. فهذه كلها أوصاف علماء الآخرة، وهذه نعوت علم الباطن وعلم القلوب، لا علم الألسنة.

وكذلك وصفهم معاذ بن جبل رضى الله عنه فى وصف العلم بالله تعالى فيما رويناه من حديث رجاء بن حيوة بن عبد الرحمن بن غنم عن معاذ، قال تعلّموا العلم فإنّ تعلّمه لله خشية، وطلبه عباده، ومدارسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدَقة، وبذله لأهله قُربة، وهو الأنيس فى الوحدة، والصاحب فى الخلوة، والدليل على السرّاء والضرّاء، والزيْن عند الأخلاّء، والقريب عند الغُرباء، ومنار سبيل الجنة، يرفع الله تعالى به أقواما، فيجعلهم الله فى الخير قادة وهداة يُقتدى بهم، أدلةً فى الخير تُقتَصُ آثارهم، وتُرمَق أعمالهم، ويُقتَدَى بفعالهم، ويُنتهَى إلى رأيهم، وتَرْغَب الملائكة فى خلّتهم، وبأجنحتها تمسحهم، حتى كل رَطْب ويابس لهم مستغفر، حتى حيتان البحر وهوامه، وسباع البر وأنعامه، والسماء ونجومها، لأن العلم حياة القلوب من العَمى، ونور الأبصار من الظلم، وقوّة الأبدان من الضعف، يبلغ به العبد منازل الأبرار والدرجات العُلى، والتفكّر فيه يُعدَل بالصيام، ومُدارسته بالقيام، به يُطاع الله تعالى، وبه

يُعبد، وبه يُوحّد، وبه يُتَوَرع، وبه تُوصلُ الأرحام. العلم إمام والعمل تابعه، تُلْهَمُه السُعداء وتُحْرَمُه الأشقياء. فهذه أوصاف علماء الآخرة ونعت العلم الباطن.

وقد كان من أفضل الأمراء بعد الخلفاء الأربعة عمر بن عبد العزيز فحدّثونا عن زكريا بن يحيى الطائى، قال حدّثنى عمى زجر بن حصين أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى الحسن رحمهما الله، أمّا بعد، فأشِرْ علىّ بقوم أستعين بهم على أمر الله تعالى، فكتب إليه أمّا أهل الدين فلن يريدوك، وأمّا أهل الدنيا فلن تريدهم، ولكن عليك بالأشراف فإنهم يصونون شرفهم أن يُدنّسوه بالخيانة.

وكان الحسن يتكلم فى بعض علماء البصرة ويذمهم، وكان أبو حازم وربيعة المدنيان يذمان علماء بنى مروان. وقد كان الثورى وابن المبارك وأيوب وابن عون يتكلمون فى بعض علماء الدنيا من أهل الكوفة. وكان الفضيل وإبراهيم بن أدهم ويوسف بن أسباط يتكلمون فى بعض علماء الدنيا من أهل مكة والشام، كرهنا تسمية المتكلم فيهم لأن السكوت أقرب إلى السلامة. وكان بشر يقول «حدّثنا» باب من أبواب الدنيا، فإذا سمعتَ الرجل يقول «حدّثنا» فإنما يقول أوسعوا لى. وقد كان سفيان الثورى إمامه من قبله يقول لأهل علم الظاهر- طلب هذا ليس من زاد الآخرة. وقال بن وهب- ذُكِرَ طلبُ العلم عند مالك فقال إن طلب العلم لَحَسن وإنّ نشره لَحَسن إذا صحّت فيه النية، ولكن أنظر ماذا يلزمك من حين تصبح إلى حين تُمسى، ومن حين تُمسى إلى حين تُصبح، فلا تؤثرنّ عليه شيئاً، وقال أبو سليمان الدارانى إذا طلب الرجل الحديث أو تزوّج أو سافر فى طلب المعاش فقد ركَنَ إلى الدنيا.

وأما علم الإيمان والتوحيد، وعلم المعرفة واليقين فهو مع كل موقن حَسَن الإسلام، وهو مقامه من الله، وحاله بين يدى الله، ونصيبه منه فى درجات الجنة، به يكون من المقربين عنده، والعلم بالله تعالى والإيمان به قرينان لا يفترقان، فالعلم بالله تعالى هو ميزان الإيمان، به يستبين المزيد من النقصان، لأن العلم ظاهر الإيمان يكشفه ويُظهره، والإيمان باطن العلم يُهيّجه ويُنشطه، فالإيمان مَدَد العلم وبصره، والعلم قوّة الإيمان ولسانه، وضعف الإيمان وقوّته ومزيده ونقصه، بمزيد العلم بالله عز وجل ونقصه، وقوّته وضعفه.

وفى وصية لقمان الحكيم لابنه: يا بنى كما لا يصلح الزرع إلاّ بالماء والتراب، كذلك لا يصلح الإيمان إلاّ بالعلم والعمل. ومثَل المشاهدة من المعرفة من اليقين من الإيمان، كمثَل النشاء من الدقيق من السويق من الحنطة، والحنطة تجمع ذلك كله، كذلك الإيمان أصل ذلك، والمشاهدة أعلى فروعه، كالحنطة أصل هذه المعانى، والنشاء أعلى فروعها، فهذه المقامات موجودة فى

أنوار الإيمان يَمُدُّها علم اليقين.

ثم إن المعرفة على مقامين، معرفة سمع ومعرفة عيان، فمعرفة السمع فى الإسلام وهو أنهم سمعوا به فعرفوه وهذا هو التصديق من الإيمان؛ ومعرفة العيان فى المشاهدة وهو عين اليقين. والمشاهدة أيضا على مقامين، مشاهدة الاستدلال ومشاهدة الدليل عنها، فمشاهدة الاستدلال قبل المعرفة، وهذه معرفة الخبر وهو فى السمع، لسانها القول، والواجد بها واجد يعلم علم اليقين من قوله تعالى بسبأ بنبأ يقين إنى وجدت، فهذا العلم قبل الوجد وهو علم السمع، وقد يكون سببه التعليم، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم تعلموا اليقين، أى جالسوا الموقنين واسمعوا منهم علم اليقين لأنهم علماؤه. وأمّا مشاهدة الدليل فهى بعد المعرفة التى هى العيان وهو اليقين، لسانه الوجد، والواجد بها واجد قُرب، ويُعَدُّ هذا الوجد عِلْمَ من عين اليقين، وهذا يتولاه الله تعالى بنوره على يده بقدرته، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم فوجدتْ بُرْدَها فَعلِمتْ، فهذا التعليم بعد الوجد من عين اليقين باليقين، وهذا من أعمال القلوب. وهؤلاء علماء الآخرة وأهل الملكوت وأرباب القلوب، وهم المقربون من أصحاب اليمين. وعلم الظاهر من علم الملك وهو من أعمال اللسان، والعلماء به موصوفون بالدنيا، وصالِحوهُم أصحاب اليمين.

وجاء رجل إلى معاذ بن جبل، فقال أخبرنى عن رجلين، أحدهما مجتهد فى العبادة كثير العمل قليل الذنوب، إلاّ أنه ضعيف اليقين يعتريه الشك فى أموره، فقال معاذ ليحبطَن شكُّه أعماله. قال فأخبرنى عن رجل قليل العمل، إلاّ أنه قوى اليقين، وهو فى ذلك كثير الذنوب، فسكت معاذ فقال الرجل والله لئن أحْبَطَ شكُّ الأوّل أعمال برّه، ليحبطنّ يقينُ هذا ذنوبه كلها. قال فأخذ معاذ بيده وقام قائما، ثم قال ما رأيت الذى هو أفْقَه من هذا. وقد روينا معناه مسنداً، قيل يا رسول الله رجل حَسَن اليقين كثير الذنوب، ورجل مجتهد فى العباد قليل اليقين، فقال ما من آدمى إلاّ وله ذنوب، ولكن من كانت غريزته العقل وسجيته اليقين لم تضره الذنوب، لأنه كلما أذنب تاب واستغفر وندم، فَتُكَفَّر ذنوبه ويبقى له فضلٌ يدخل به الجنة. وروينا فى حديث أبى أمامة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر، ومَنْ أعطى حظه منهما لم يبال ما فاته من قيام الليل وصيام النهار. وفى وصية لقمان لابنه يا بنى لا يُستطاع العمل إلاّ باليقين، ولا يعمل المرء إلاّ بقدر يقينه، ولا يُقَصِّر عامل حتى يَقْصُر يقينه، وقد يعمل العمل الضعيف إذا كان متيقنا أفضل من العمل القوى الضعيف فى يقينه، ومن يضعف يقينه تغلبه المحقرات من الإثم. وقد كان يحيى بن معاذ يقول إن التوحيد نوراً والشرك ناراً، وإن نور التوحيد أحرق لسيآت الموحدين من نار الشرك لحسنات المشركين.

واليقين على ثلاث مقامات، يقين معاينة وهذا لا يختلف خبره فالعالم به خبير، وهو للصدّيقين والشهداء ويقين تصديق واستسلام وهذا فى الخبر، والعالم به مُخبِر مسلم، وهذا يقين المؤمنين وهم الأبرار، منهم الصالحون ومنهم دون ذلك، كقوله تعالى وما زادهم إلاّ إيمانا وتسليما. وقد يضعف هؤلاء بعدم الأسباب ونقصان المعتاد، ويقوون بوجودها وجريان العادة، ويحجبون بنظرهم إلى الأواسط ويكاشفون بها، ويجعلون مزيدهم وأنسهم بالخَلْق، ويكون نقصهم ووحشتهم بفقدهم، ويكون من هؤلاء الاختلاف، ويتلوّنون بالخلاف لتلوين الأشياء وتغيّرها عليهم.

والمقام الثالث من اليقين وهو يقين ظن، يقوى بدلائل العلم والخبر وأقوال العلماء، ويجد هؤلاء المزيد من الله تعالى والنصيب منه لهم، ويضعف بفقد الأدلة وصمت القائلين. وهذا يقين الاستدلال، وعلوم هذا فى المعقول، وهو يقين المتكلمين من عموم المسلمين من أهل الرأى وعلوم العقل والقياس والنظر. وكل موقن بالله تعالى فهو على علم من التوحيد والمعرفة، ولكن علمه ومعرفته على قدر يقينه، ويقينه من نحو صفاء إيمانه وقوّته، وإيمانه على مقتضى معاملته ورعايته، فأعلى العلوم علم المشاهدة عن عين اليقين، وهذا مخصوص للمقربين فى مقامات قُربهم ومحادثات مجالستهم ومأوى أنسهم ولطيف تملقهم. وأدنى العلوم علم التسليم والقبول بعدم الإنكار وفقد الشكوك، وهذا لعموم المؤمنين، وهو من علم الإيمان، ومزيد التصديق وهذا لأصحاب اليمين، وبين هذيْن مقامات لطيفات من أعلى طبقات المقربين إلى أوسط المقامات، ومن أدنى طبقات أصحاب اليمين إلى أعلى أواسط الأعلين.

ذكر بيان تفضيل علوم الصمت وطريق الورعين فى العلوم

وروينا فى الخبر العلم ثلاثة– كتاب ناطق وسنة قائمة ولا أدرى. وعن الشعبى أنه قال «لا أدرى» نصف العلم، يعنى أنه من الورع. وكان الثورى رضى الله عنه يقول إنما العلم الرخصة من ثقة، فأما التشديد فكل أحد يُحسنه، يعنى أن التورع والتوقف فى الأمور هو سيرة المؤمنين وإن لم يكونوا علماء، لأن الورع هو الجُبن عن الإقدام والهجوم على الشبهات، والوقوف عند المشكلات بسكون أو سكوت. واليقين هو الإقدام على الأشياء ببصيرة وتمكين، والقطع بالأمر على علم وخبر. فهذا صفة العلماء الموثوق بعلمهم، لا يحسنه سواهم، كما قال علىّ عليه السلام لابنه محمد بن الحنفية وقدّمه أمامه يوم الجمل، وجعل يقول له أقدِم أقدم، ومحمد يتأخر، وهو يركُزُه بقائم رمحه، فالتفت إليه محمد ابنه فقال هذه والله الفتنة المظلمة العمياء، فوكَزَه علىّ برمحه ثم قال تقدّم لا أمّ لك، أتكون فتنة أبوك قائدها وسائقها ؟

والمرء إذا قال لا أدرى فقد عمل بعلمه وقام بحاله، فله من الثواب بمنزلة من دَرَى، فقام

بحاله وعمل بعلمه فأظهره، فلذلك كان قول «لا أدرى» نصف العلم، ولأن حُسْن من سكت لأجل الله تعالى تورعاً كحُسن من نطق لأجله بالعلم تبرعا. وقال علىّ بن الحُسينْ ومحمد بن عجلان إذا أخطأ العالم قوْل «لا أدرى» أصيبت مقالته. وقاله مالك والشافعى بعدهما. واعلم أن مَثَل العلم والجهل فى تفاوت الناس فيهما مَثَل الجنون والعقل. والمجانين طبقات كالعقلاء طبقات. وكذلك الجُهّال طبقات كالعلماء. فخصوص الجُهّال يُشبهون عموم العلماء. فهم يشتبهون على العامة حتى يحسبوهم علماء وهم مكشوفون عند العلماء بالله تعالى. وكذلك العارفون يشتبهون على عموم العلماء وهم ظاهرون للموقنين.

وقال بعض العلماء العلم علمان: علم الأمراء وعلم المتّقين. أمّا علم الأمراء فهو علم القضايا، وأمّا علم المتّقين فهو علم اليقين والمعرفة. وقد قال الله سبحانه فى وصف علم المؤمنين وذِكْر علم الإيمان يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات، فجعل المؤمنين علماء فدلّ على أن العلم والإيمان لا يفترقان، والواو هنا عند أهل اللغة للمدح لا للجمع، فالعرب إذا مدحت بالأوصاف أدخلت الواو للمبالغة فقالوا فلان العاقل والعالم والأديب، ومثل هذا قوله تعالى لكن الراسخون فى العلم منهم، والمؤمنون بما أُنزِل إليك وما أُنزل من قبلك، والمقيمين الصلاة، والمؤتون الزكاة، كله نعت، فالمؤمنون هم الراسخون فى العلم، وهم المقيمون والمؤتون أيضا، وكلهم وصْف الراسخون فى العلم، ولذلك انتصب قوله والمقيمين الصلاة لأنه مدح، والعرب تنصب وترفع بالمدح. وبمعناه قوله تعالى والراسخون فى العلم يقولون آمنا به، فوصف العلماء بالإيمان كما وصف المؤمنين بالعلم. وكذلك قوله تعالى وقال الذين أوتوا العلم والإيمان. ومن هذا حديث أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم أمتى خمس طبقات، كل طبقة أربعون عاما، فطبقتى وطبقة أصحابى أهل العلم والإيمان والذين يلونهم إلى الثمانين البرّ والتقوى، والذين يلونُهم إلى مائة وعشرين أهل التواصل والتراحم، فقَرَن العلم بالإيمان وقدّمهم على سائر الطبقات. وقد قَرَن الله سبحانه الإيمان بالقرآن وهو علم، كما قرن القرآن بالإيمان، كما قال تعالى كَتَبَ فى قلوبهم الإيمان وأيدّهم بروح منه. قيل القرآن وتكون الهاء عائدة إلى الله تعالى فى أكثر الوجوه، كما قال ما كنتَ تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً. فأهل الإيمان هم أهل القرآن، وأهل القرآن هم أهل الله وخاصته. وقال المهدى لسفيان بن الحسين لمّا دخل عليه وكان أحد العلماء، أمِنْ العلماء أنت؟ فسكت، فأعاد عليه فسكت، فقيل ألاَ تجيب أمير المؤمنين، فقال يسألنى عن مسئلة لاجواب لها، إنْ قلت لست بعالم وقد قرأتُ كتاب الله تعالى كنتُ كاذباً، وإن قلتُ إنى عالم كنت جاهلا. وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع عن أنس

فى قوله تعالى إنما يخشى الله من عباده العلماء، قال مَنْ لم يخش الله تعالى فليس بعالم، ألا ترى أن داود صلى الله عليه وسلم قال ذلك بأنك جعلت العلم خشيتك والحكمة والإيمان بك، فما علِمَ مَن لم يخشك وما حكَم من لم يؤمن بك. وقد سمّى عبد الله بن روَاحة العلم إيمانا، فكان يقول لأصحابه اقعدوا بنا نؤمن ساعة، فيتذاكرون علم الإيمان.

وقد جعل الله للمؤمنين سمعا وبصرا وقلبا، وهذه طرائق العلم التى يؤخذ العلم منها ويوجد بها، وهى أصول العلم، والنعِم التى أنعم الله على الخلْق بها وطالبهم بالشكر عليها، فقال سبحانه والله أخرجكُم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيأ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون، فاثبت العلم بها بعد النفى بها له. وقال تعالى فى وصف من لم يكن مؤمنا ونفى الغُنية بالعلم بها ـ وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شئ إذ كانوا يجحدون بآيات الله ـ فمن آمن بآيات الله تعالى أغنى عنه سمعه وبصره وقلبه، فكانت طرق العلم إليه. وقال عز وجل فى معنى ذلك أيضا ولا تَقْفُ ما ليس لك به علم، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤلا. فلولا أن العلم يقع بالسمع والبصر والقلب مانهى عمّا لا يعلم هذه الأشياء، ففى النهى عن قفو مالا يعلم هذه الأواسط، ويتبعه إثبات العلم بها، فكل مؤمن هو ذو سمع وبصر وقلب فهو عالم بفضل الله ورحمته.

ومما فضّل الله تعالى به هذه الأمة على سائر الأمم أو خصّها به ثلاثة أشياء، تبقيْة الإسناد فيهم، يأثره خلفٌ عن سلف، متصلاً إلى نبينّا محمد صلى الله عليه وسلم، وإلى من خلا من علمائنا، وإنما كانوا فيهم يستنسخون الصحف كلما اختلقت صحيفة جُدِّدت، فكان ذلك أثَرَة العلم فيهم، والثانى حفظ كتاب الله تعالى المنزّل عن ظهر غيْب، وإنما كانوا يقرؤن كتبهم نظراً، ولم يُحفظ جميع كتاب أنزله الله تعالى قط غير كتابنا هذا، إلاّ ما ألهمه الله تعالى عُزيرا من التوراة بعد أن كان بُختُنصر أحرق جميعها عند إحراق بيت المقدس، فلذلك قال سبط من اليهود إنه ابن الله تعالى عَز عن ذلك علواً كبيرا، لما خصّه به وأفرده من حفظ جميع التوراة. والثالث أن كل مؤمن من هذه الأمة يُسئل عن علم الإيمان ويُسمع قوله ويؤخذ من رأيه وعلمه مع حداثة سنه، ولم يكونوا فيما مضى يسمعون العلم إلاّ من الأحبار والقسيسين والرهبان لاغير من الناس. وزادها رابعة على أمّة موسى صلى الله عليه وسلم ثبات الإيمان فى قلوبهم لا يعتريه الشك ولا يختلجه الشرْك مع تقليب القلوب فى المعاصى. وكانت أمة موسى عليه السلام تتقلب قلوبهم فى الشك والشرك كما تتقلب جوارحهم فى المعاصى، فلذلك قالوا ياموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة بعد أن رأوا الآيات العظيمة من انفلاق البحر وسلوكهم فيه طرائق، وأنجاهم

من الغرق وأهلك فرعون.

وروينا في بعض الأخبار أن في بعض الكتب المنزّلة يا بني اسرائيل لا تقولوا العلم في السماء مَنْ ينزّل به. ولا في تخوم الأرضين من يصعد به، ولا من وراء البحار من يعبُره يأتي به، العلم مجعول في قلوبكم تأدّبوا بين يديّ بآداب الروحانيين، وتخلّقوا إليّ بأخلاق الصدّيقين أظهر العلم في قلوبكم حتى يغطيكم ويغمركم. وفي الإنجيل مكتوب لاتطلبوا علم مالم تعلموا حتى تعملوا بما قد علمتم. وفي أخبارنا نحن، من عمل بما يعلم ورّثه الله علم مالم يعلم، حتى قيل من عمل بعُشر ما يعلم ورّثه الله علم مايجهل. وقد روينا عن حُذيفة بن اليمان إنكم اليوم في زمانٍ مَنْ ترك فيه عُشر ما يعلم هلك، ويأتي بعدكم زمان من عمل منهم بعُشر ما يعلم نجا، وهذا لقلة العاملين وكثرة البطّالين. وفي كتابنا المُجمل المختصر واتقوا الله، ويعلّمكم الله، واتقوا الله واعلموا، واتقوا الله واسمعوا.

واعلم أن من عمل بعلم أو نطق به فأصاب الحقيقة عند الله تعالى فله أجران، أجر التوفيق وأجر العمل، وهذا مقام العارفين. ومن نطق بجهل أو عمل به وأخطأ الحقيقة فعليه وزران، وهذا مقام الجُهّال. ومن قال أو عمل بعلمه وأخطأ الحقيقة فله أجر لأجل العلم، وهذا مقام علماء الظاهر. ومن قال بجهل أو عمل عملا وأصاب الحقيقة فعليه وزر لتركه طلب العلم، وهذا مقام جهلة العابدين. ومَثَل العالم مَثَل الحاكم. وقد قسّم النبي صلى الله عليه وسلم الحكّام ثلاثة أقسام، فقال صلى الله عليه وسلم: القضاة ثلاثة، قاض قضى بالحق وهو يعلم فذاك في الجنة، وقاض قضى بالجوْر وهو يعلم، أو قضى بالجور وهو لايعلم فهما في النار.

ومن أحسن ماسمعت في قوله تعالى يابني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يُوارى سوآتكم، قيل العلم، وريشاً، قيل اليقين، ولباس التقوى، أي الحياء. وروينا عن وهب بن منبه اليماني في معناه الإيمان عريان، ولباسُه التقوى، وزينته الحياء، وثمرته العلم. وقد أسنده حمزة الخراساني عن الثوريّ فرفعه إلى عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم. وقد رويناه أيضا مسنداً قال مسعر عن سعد بن إبراهيم وسأله سائل، أيُّ أهل المدينة أفقه؟ فقال أتقاهم لله عز وجل. وقال بعض العلماء لو قال لي قائل أيُّ الناس أعلم، لقلت أورعهم. ولو قال لي قائل أيُّ أهل هذه المدينة خير، لقلت تعرفون أنصحهم لهم. فإذا قالوا نعم، قلت هو خيرهم. وقال آخر لو قيل لي من أحمق الناس، لأخذت بيد القاضي فقلت هذا. وقال الله تعالى واتقوا الله واسمعوا، واتقوا الله وقولوا قولا سديدا، فجعل تعالى مفتاح القول السديد والعلم الرشيد والسمع المكين التقوى، وهي وصية الله تعالى من قبْلنا وإيانا، إذ يقول الله سبحانه وتعالى ولقد وصّينا الذين أوتوا

الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله، وهذه الآية قطب القرآن، ومداره عليها كمدار الرحى على الخشبان.

وروينا عن عيسى عليه السلام كيف يكون من أهل العمل من مسيره إلى آخرته وهو مقبل على دنياه؟ وكيف يكون من أهل العلم من يطلب الكلام ليخبر به وهو لا يطلبه ليعمل به؟ وقال الضحّاك بن مُزاحم أدركتهم وما يتعلم بعضهم من بعض إلاّ الورع، وهم اليوم يتعلمون الكلام. وفى الحديث ماضلّ قوم بعد هُدىً كانوا عليه إلاّ أعطوا الجدل، ثم قرأ ما ضربوه لك إلاّ جدلا، بل هم قوم خَصِمون. وفى الحديث فأمّا الذين فى قلوبهم زيْغ الآية، هم أهل الجدل الذين عَنَى الله تعالى فاحذروهم. وعن بعض السلف يكون فى آخر الزمان علماء يغلق عنهم باب العمل ويُفتح عليهم باب الجدل. وفى بعض الأخبار إنكم فى زمان أُلهمتم فيه العمل، وسيأتى قوم يُلهمون الجدل. وعن ابن مسعود أنتم اليوم فى زمان خيركم فيه المسارع ويأتى بعدكم زمان خيركم فيه المتبيّن، يعنى الآن لبيان الحق واليقين فى القرن الأول، وبعد ذلك فى زماننا هذا لكثرة الشبهات والالتباس ودخول المحدَثات مداخل الليل فى السيْر، فأُشكل الأمر إلاّ على الفرد الذى يعرف طرائق السلَف فيجتنب الحدَث كله. وروينا عن بعض العلماء إذا أراد الله بعبد خيراً فتح له باب العمل وأغلق عنه باب الجدل، وإذا أراد الله بعبد سوأ أغلق عنه باب العمل وفتح عليه باب الجدل. وفى الخبر المشهور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أَبْغَضُ الخلْق إلى الله عز وجل الألد الخَصِم. وقد روينا فى خبر الحياء والعَىّ شُعبتان من الإيمان، والبذاء والبيان شعبتان من النفاق، وفى بعضها مفسّرا والعَى عَى اللسان لا عَى القلب. والخبر الآخر ما روَى الحكم بن عُيينة عن عبد الرحمن بن أبى ليلى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أوتى قوم المنطق إلا منُعوا العمل . وفى الحديث أن الله تعالى ليبَغِض البليغ من الرجال الذى يتخلل الكلام بلسانه كما يتخلل الباقرة الخلاء بلسانها، والخلاء هو الحشيش الرطب. وكان أحمد بن حنبل يقول العلم إنما هو ماجاء من فوق، يعنى إلهاما من غير تعليم. وقال أيضا علماء أهل الكلام زنادقة. وقال قبله أبو يوسف مَن طلب العلم بالكلام تزندق.

بيان آخر فى فضل علم الباطن على الظاهر

ومما يدلُك على أن العلم الذى فضلَه العلماء وأعظموا ذكره وخطره، ووصفوا به العالم ومدحوه به، وجاءت بفضله الآثار، ونُدب إليه، وفُضّل فى الأخبار أهله، إنما هو العلم بالله تعالى، الدال على الله تعالى، الرّاد إليه، الشاهد بالتوحيد فى علم الإيمان واليقين، وعلم المعرفة والمعاملة دون سائر علوم الفُتيا والأحكام، أنهم يقولون من عمل بعلمه، ويذكرون العمل بالعلم،

ويصفون جملته بالخشية والخشوع، فهذا إنما هو علم القلوب لا علم اللسان الذى يكون به العلم، ولاتتأتى عنه المعاملات من أعمال الإيمان، مثل أعمال القلوب التى هى مقامات اليقين وصفات المتّقين، ومثل أعمال الجوارح من الصالحات التى هى مزيد الإيمان، والذين أربابها أهل الفقر والزهد، وذو التوكل والخوف، وأصحاب الشوق والمحبة. وليس يعنون أن يكون الإنسان إذا علم علم الأحكام والقضايا عمل بها والتزم الدخول فى أحكامها ليعامل منها، مثل أن يطلب القضاء فيقضى بين الناس إذا كان عالما به، أو يقتنى المال ويدخل فى البيع والشراء إذا كان عالما بالزكوات والبياعات، أو يتزوج النساء ويطلقّ لإنه عالم بالنكاح والطلاق ليكون بهذه الأشياء عاملا بعلمه، وهذا ما قاله أحد. بل قد رُوى فى كراهة ذلك وذمّه مايكثر ذكره. وأهل هذه العلوم موصوفون بالرغبة فى الدنيا والحرص على جمعها ويُلابسون الأمراء فيعاملون لهم، فبطُل أنهم هم المعنيون بالعلم، الموصوفون بالخشوع والزهد. ومثل ذلك أيضا تفضيل الجمهور من السلف العلم على العمل، وقولهم ذرة من علم أفضل من كذا من العمل، وركعتان من عالم أفضل من ألف ركعة من عابد. وحديث أبى سعيد الخُدرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فضل العالم على العابد كفضلى على أمتى، والخبر المشهور كفضل القمر على سائر الكواكب. وقول ابن عباس وسعد وقد رويناه مسنداً عالم واحد أشد على الشيطان من ألف عابد. وكذلك قيل فى موته أحب إليه من موت ألف عابد، إنما يعنون بذلك العلم بالله تعالى أفضل من العمل، لأن العلم بالله تعالى وصف من الإيمان، ومعنى من اليقين الذى لم ينزل من السماء أعز منه، فهو لا يعادله شئ، ولا يصح عمل ولا يقبل إلاّ به، ولأنه معيار الأعمال كلها، على وزنه تُتقَبل الأعمال قَبولا حسنا، بعضه أحسن من بعض، ويثقل فى الميزان ثقلا فوق ثقل، ويُرفع به العاملون فى درجات علّيين بعضها من بعض. وقد قال تعالى ولقد جئناهم بكتاب فصّلناه على علم، ثم قال فلنقصنّ عليهم بعلم. وقال تعالى والوزن يومئذ الحق، فمن ثقلت موازينه فما كان العائد منه إلى الربوبية أقرب كان أفضل. والعمل وصف العامل وحكم العبودية، لأنهم يعنون العلم بالفتيا والأحكام والقضاء، التى هى أماكن الخلق عائدة عليهم، أفضل من معاملات الله سبحانه وتعالى بالقلوب من مقامات التوكل والرضا والمحبة التى هى معاينة اليقين الذى هو مقام المقربين، هذا لايقوله عالم.

وقد روينا عن عبد الرحمن بن غنم عن معاذ بن جبل قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أقرب الناس من درجة النبوّة أهل العلم وأهل الجهاد، أما أهل العلم فدلّوا الناس على ما جاءت به الرسل، وأما أهل الجهاد فجاهدوا بأسيافهم على ماجاءت به الرسل. ألاتراه كيف

جعل العلم دالاً على الله تعالى كالجهاد، وكذلك جاء في الخبر أول من يشفع الأنبياء ثم الشهداء. وفي الخبر للأنبياء على العلماء فضل درجة، وللعلماء على الشهداء فضل درجتين. وقال ابن عباس في معنى قوله عز وجل يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتو العلم درجات، قال للعلماء درجات فوق الذين آمنوا بسبعمائة درجة، ما بين الدرجتين خمسمائة عام. وقال ابن مسعود لما مات عمر رضي الله عنهما إني لأحسب انه ذهب بتسعة أعشار العلم، فقيل تقول هذا وفينا جُلّه الصحابة؟ فقال ليس أعنى العلم الذى تريدون، إنما العلم بالله تعالى، فجعل العلم بالمعلومات غير حقيقة العلم، وفضل العلم بالله تعالى بتسعة أعشارها، وليس يزيد علم الظاهر على الأعمال كثيرَ زيادة، إذ هو من الأعمال الظاهرة لأنه صفة اللسان، ولأنه للعموم من المسلمين، فأعلى مقاماته الإخلاص، فإن فاتهم فهو دنيا كسائر الشهوات. والإخلاص هو أول حال العالم بالله تعالى بالعلم الباطن، ولا نهاية لمقاماتهم إلى أعلى مقامات العارفين ودرجات الصدّيقين.

باب ذكر الفرق بين علماء الدنيا وعلماء الآخرة وذم علماء السوء الآكلين بعلومهم الدنيا

قد فرّقت العلماء بين العلم بالله تعالى وبين العلم بأمر الله تعالى، وفرّقوا بين علماء الدنيا وعلماء الآخرة، فقال سفيان العلماء ثلاثة، عالم بالله وبأمر الله فذلك العالم الكامل، وعالم بالله تعالى فذاك التقىّ الخائف، وعالم بأمر الله تعالى غير عالم بالله فذاك العالم الفاجر. وقيل أيضا عالم لله تعالى وهو العامل بعلمه، وعالم بأيام الله تعالى وهو الخائف الراجي. وسئل سفيان عن العلم ما هو فقال هو الورع، قيل، وأى شيء الورع، فقال طلب العلم الذى يُعرف به الورَع، وهو عند قوم طول الصمت وقلة الكلام، وما هو كذلك، إنما هو المتكلم العالم عندنا أفضل من الصمت.

وروينا عن لقمان في وصيته: العلم ثلاث علامات: العلم بالله، وبما يحبه الله تعالى، وبما يكره، فجعل حقيقة العلم ودليل وجوده هذه الثلاث. ومما يدلك على الفرق بين علماء الدنيا وعلماء الآخرة أن كل عالم بعلم إذا رآه من لا يعرفه لم يتبين عليه أثر علمه، ولا عرف أنه عالم، إلا العلماء بالله عز وجل فإنما يُعرفون بسيماهم، للخشوع والسكينة والتواضع والذلّة، فهذه صبغة الله تعالى لأوليائه ولِبْسَتُه للعلماء به، ومن أحسن من الله صبغة، فمثلهم في ذلك كمثل الصنّاع، إذ كل صانع لو ظهر لمن لا يعرفه لم يُعرف صنعُه دون سائر الصنائع، ولم يفرّق بينه وبين الصنّاع إلا الصنّاع، فإنه يُعرف بصَنعته لأنها ظاهرة عليه إذ صارت له لِبسَةً وصفة لالتباسها

بمعاملته، فكانت سيماه كما قيل ما ألبس الله تعالى عبداً لِبْسةً أحسن من خشوعٍ فى سكينة، هى لِبْسة الأنبياء وسِيما الصدّيقين والعلماء، فأعلم الناس بلطف ما يحب الله تعالى وخفىّ ما يكره أهل القلوب الفاقهة عن الله تعالى وهم العارفون به.

وقد كان سهل رحمه الله يقول العلماء ثلاثة: عالم بالله تعالى، وعالم لله تعالى، وعالم بحكم الله تعالى، يعنى بالعالم بالله تعالى العارف المؤقن، والعالم لله عز وجل هو العالم بعلم الإخلاص والأحوال والمعاملات، وبالعالم بحكم الله تعالى هو العالم بتفصيل الحلال والحرام، فسَرْنا ذلك على معانى قوله ومعرفة مذهبه. وقد قال مرة فى كلام أبسط من هذا، عالم بالله لا بأمر الله ولا بأيام الله وهم المؤمنون، وعالم بأمر الله لا بأيام الله وهم المفتون فى الحلال والحرام، وعالم بالله تعالى، عالمٌ بأيام الله وهم الصدّيقون، يعنى قوله بأيام الله أى بنعمته الباطنة وبعقوباته الغامضة. ثم قال: الناس كلهم موتى إلاّ العلماء، والعلماء نيام إلا الخائفين، والخائفون منقطعون إلا المحبين، والمحبون أحياء شهداء وهم المؤثرون لله تعالى على كل حال. وقد كان يقول طلاّب العلم ثلاثة: واحد يطلبه للعمل به، وآخر يطلبه ليعرف الاختلاف فيتورع ويأخذ بالاحتياط، وآخر يطلبه ليعرف التأويل، فيتناول الحرام فيجعله حلالا، فهذا يكون هلاك الحق على يديه. وقد حُدّثتُ عن أبى يوسف أنه كان إذا صار رأس الحول وَهَب ماله لامرأته واستوهبها مالها فتسقط عنهما الزكاة، فذكر ذلك لأبى حنيفة فقال ذلك من فقهه، فإنما يُطلب العلم لمعرفة الورع والاحتياط للدين، فهذا هو العلم النافع، فإذا طُلب لمثل هذا ولتأويل الهوى، كان الجهل خيرا منه، وصار هذا العلم هو الضار الذى استعاذ الرسول صلى الله عليه وسلم منه.

وروينا عن عمر وغيره: كم من عالم فاجر، وعابد جاهل، فاتقوا الفاجر من العلماء والجاهل من المتعبّدين. وعن عمر أيضا وقد رويناه مسنداً اتقوا كل منافق عليم اللسان يقول ما تعرفون، ويعمل ما تنكرون. وروينا عنه أيضا تعلّموا العلم، وتعلّموا للعلم السكينة والحلم، وتواضعوا لمن تعلمون، وليتواضع لكم من يتعلم منكم، ولا تكونوا جبابرة العلماء فلا يقوم علمكم بجهلكم. وروينا عن علىّ وابن عباس رضى الله عنهما، وعن كعب الأحبار: يكون فى آخر الزمان علماء يزهّدون الناس فى الدنيا ولا يزهَدون، ويخوّفون ولا يخافون، ويَنهَوْن عن غشيان الولاة ولا ينتهُون، ويؤثرون الدنيا على الآخرة، ويأكلون الدنيا بألسنتهم أكلا، يقرّبون الأغنياء ويُباعدون الفقراء، يتغايرون على العلم كما تتغاير النساء على الرجال، يغضب أحدهم على جليسه إذا جالس

غيره، ذلك حظهم من العلم. وفى حديث علىّ رضى الله عنه علماؤهم شر الخليقة، منهم بدت الفتنة وفيهم تعود. وفى حديث ابن عباس أولئك الجبارون أعداء الرحمن. وروينا عن علىّ عليه السلام ما قطع ظهرى فى الإسلام إلاّ رجلان، عالم فاجر ومُبْتدع ناسك، فالعالم الفاجر يزّهد الناس فى علمه لما يروْن من فجوره، والمبتدع الناسك يرّغب الناس فى بدعته لما يرون من نُسكه. وقال صالح بن حسّان البصرى أدركت المشيخة وهم يتعوذون بالله تعالى من الفاجر العالم بالسنّة. وقال الفضيل بن عياض إنما هما عالمان، عالم دنيا وعالم آخرة، فعالم الدنيا علمه منشور، وعالم الآخرة علمه مستور، فاطلب عالم الآخرة واحذر عالم الدنيا لا يصدّنك بشكره، ثم قرأ إنّ كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدّون عن سبيل الله، قال فالأحبار العلماء، والرهبان الزهّاد. وقال سهل بن عبد الله طلاّب العلم ثلاثة، فواحد يطلب علم الورع مخافة دخول الشُبهة عليه، فيدع الحلال خوف الحرام، فهذا زاهد تقى، وآخر يطلب علم الاختلاف والأقاويل، فيدع ما عليه ويدخل فيما أباح الله تعالى بالسعة ويأخذ للرخصة، وآخر يسأل عن شىء فيقال هذا لا يجوز فيقول كيف أصنع حتى يجوز لى، فيسأل العلماء فيخبرونه بالاختلاف والشبهة، فهذا يكون هلاك الخلق على يديه وقد أهلك نفسه، وهم علماء السوء. واعلم أن كل محب للدنيا ناطق بعلم فإنه آكل للمال بالباطل، وكل من أكل أموال الناس بالباطل فإنه يصدّ عن سبيل الله لا محالة، وإنْ لم يظْهر ذلك فى مقاله، ولكنك تعرفه فى لحن معناه بدقائق الصدّ عن مجالسة غيره، وبلطائف المنع من طرقات الآخرة، لأن حب الدنيا وغَلَبة الهوى يحكمانْ عليه بذلك شاء أم أبى.

وقال بعض العلماء إن الله عزّ وجلّ يحب العالم المتواضع ويبغَضُ الجبار من العلماء، ومَن تواضع لله تعالى ورّثه الله تعالى الحكمة. وفى الخبر عن ابن مسعود أن الله تعالى ليمقُت الحبَر السمين. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمالك بن الصيْف حبر من أحبار اليهود: نشدتك الله تعالى، ألم تجد فيما أنزل تعالى على موسى عليه السلام أن الله تعالى يبغض الحبر السمين. وكان ابن الصيف سمينا فغضب عندها، فقال ما أنزل الله على بشر من شىء، ففيه نزلت هذه الآية تعريفاً لبُهته قُلْ من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا، فقال له أصحابه ويحك ماذا قلت، جحدت كتاب موسى، فقال إنه محكّنى فقلت ذلك. ويقال ما آتى الله تعالى عبداً علماً إلاّ آتاه حلماً وتواضعاً وحُسن خُلقٌ ورفقاً، فذلك علامة العلم النافع. وقد روينا معناه فى الأثر مَنْ آتاه عز وجل زُهداً وتواضعاً وحُسن خلُق فهو إمام المتقين، وكان الحسن يقول

الحلم وزير العلم، والرفق أبوه، والتواضع سرباله. وفى أخبار داود عليه السلام أن الله تعالى أوحى إليه يا داود لا تسألَنّ عالما قد أسكرته الدنيا فيصدك عن طريق محبتى، أولئك قُطّاع طريق عبادى المريدين. ياداود إنّ أدنى ما أصنع بالعالم إذا آثر شهوته على محبتى أن أحرمه لذيذ مناجاتى. ياداود إذا رأيت لى طالباً فكن له خادماً. ياداود من ردّ إلىّ هاربا كتبتُه عندى جهبذا، ومن كتبته جهبذا لم أعذبه أبدا.

وروينا عن عيسى عليه السلام مَثَلُ علماء السوء مَثَل صخرة وقعت على فم النهر، لا هى تشرب الماء ولا تترك الماء يخلُص إلى الزرع، وكذلك علماء الدنيا قعدوا على طريق الآخرة فلا هم نفذوا ولا تركوا العباد يسلكون إلى الله عز وجل. قال ومَثَل علماء السوء كمثل قناة الحُشّ، ظاهرها حسن وباطنها نتن، ومَثَل القبور المشيّدة ظاهرها عامر وباطنها عظام الموتى. وقال بشر بن الحارث من طلب الرياسة من العلماء فتقرّب إلى الله تعالى ببُغضه فإنه مَقيت الله فى السماء والأرض. وكان الأوزاعى يروى عن بلال بن سعد أنه كان يقول ينظر أحدكم إلى الشرطى فيستعيذ بالله تعالى من حاله ويمقته، وينظر إلى عالم الدنيا قد تصنّع للخَلْق وتشوّف للطمع والرياسة فلا يمقته. هذا العالم أحق بالمقْت من ذلك الشرطى. وقد كان أبو محمد يقول لا تقطعوا أمراً من الدين والدنيا إلاّ بمشورة العلماء تحمدوا العاقبة عند الله. قيل يا أبا محمد مَنْ العلماء؟ قال الذين يؤثرون الآخرة على الدنيا، ويؤثرون الله تعالى على نفوسهم. وقد قال عمر رضى الله عنه فى وصيته وشاور فى أمورك الذين يخشون الله تعالى. وروينا فى الإسرائيليات أن حكيماً من الحكماء صنّف ثلثمائة وستين مُصحفا فى الحكمة حتى وُصف بالحكم، فأوحى الله تعالى إلى نبيّهم قل لفلان ملأت الأرض نفاقا ولم تُردنى بشىء من ذلك، وإنى لا أقبل شيأً من نفاقك، قال فأسقط فى يديه وحزن، وترك ذلك وخالط العامة ومشى فى الأسواق وواكل بنى إسرائيل وتواضع فى نفسه فأوحى الله تعالى إلى النبى عليه السلام قُلْ له الآن وافقت رضاى.

وقال بعض العلماء كان أهل العلم على ضربين: عالم عامة وعالم خاصة، فأما عالم العامة فهو المُفتى فى الحلال والحرام ـ وهؤلاء أصحاب الأساطين، وأما عالم الخاصة فهو العالم بعلم التوحيد والمعرفة، وهؤلاء أهل الزوايا وهم المنفردون. وقد كانوا يقولون مَثَل الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه مَثَل دجلة، كل أحد يعرفها، ومَثَل بشر بن الحارث مثل بئر عذبة مغطاة لا يقصدها إلاّ واحد بعد واحد. وقال حمادُ بن زيد قيل لأيوب العلم اليوم أكثر أو فيما مضى؟ فقال العلم فيما مضى كان أكثر، والكلام اليوم أكثر. ففرق بين العلم والكلام. وقد كانوا

يقولون فلان عالم، وفلان متكلم، وفلان أكثر كلاما، وفلان أكثر علما . وكان أبو سليمان يقول المعرفة إلى السكوت أقرب منها إلى الكلام، وقال بعض العارفين هذا العلم على قسمين، نصفه صمت، ونصفه تدرى أين تضعه ، وزاد آخر ونصفه وَجْد ونصفه نظر، يعني تفكّراً أو اعتباراً. وسئل سفيان عن العالم من هو؟ فقال من يضع العلم فى مواضعه ويؤتى كل شئ حقه. وقال بعض الحكماء إذا كثر العلم قل الكلام. وقد كان إبراهيم الخواص رحمه الله يقول الصوفى كلما ازداد علما نقصت طينته. وقال بعض شيوخنا قلتُ للجنيد يا أبا القاسم يكون لسانٌ بلا قلب ؟ فقال نعم قد يكون، ولكن لساناً بلا قلب بلاء، وقلباً بلا لسان نعمة، فقلت فإذا كان لساناً وقلبا؟ قال فذاك الزُبد بالنرسيان يعنى العسل. وقد روينا حديثا مقطوعا عن سفيان عن مالك بن مِغْول قال قيل يارسول الله أى العمل أفضل؟ قال اجتناب المحارم، ولا يزال فوك رطبا من ذِكْر الله تعالى. قيل يارسول الله فأى الأصحاب خير ؟ قال صاحبٌ إنْ ذكرت أعانك، وإنْ نسيت ذكّرك. قيل فأى الأصحاب شرّ؟ قال صاحب إن سكّت لم يذكّرك، وإن ذكَرت لم يُعنْك. قال فأى الناس أعلم؟ قال أشدهم لله تعالى خشية. قال فأخبرنا بخيارنا نجالسهم. قال الذين إذا رُؤا ذُكِر الله تعالى. قالوا فأى الناس شرّ يارسول الله ؟ قال اللّهم اغفر. قالوا أخبرنا يارسول الله . قال العلماء إذا فسدوا.

وقد وصف علىّ عليه السلام علماء الدنيا الناطقين عن الرأى والهوى بوصف غريب رويناه عن خالد بن طليق، عن أبيه، عن جده. وجده عمران بن حُصيْن، قال خطَبَنا علىّ بن أبى طالب عليه السلام ورضى عنه فقال ذمتى رهينة وأنا زعيم، لا يهيج على التقوى زرعُ قوم، ولا يظمأ على الهدى شُحّ أصل، وإنّ أجهَلَ الناس من لا يعرف قدرَه، وكفى بالمرء جهْلاً أنْ لا يعرف قدره. وإنّ أبغض الخلْق إلى الله تعالى رجل قَمَّش علما أغار فى أغباش الفتنة، عَمِىَ عما فى غيب الهدنة، سمّاه أشباه الناس وأرذالهم عالما، ولم يغن فى العلم يوما سالما، بكّر فاستكثر مما قل منه خير مما كثُر ، حتى إذا ارتوى من آجن، وأكثر من غير طائل، جلس للناس مُفتيا لتخليص ما التبس على غيره، فإن نزلَتْ به إحدى المبهمات هيأ لها عشو الرأى من رأيه، فهو من قِطَع الشُبهات فى مثل غزل العنكبوت، لا يدرى أخْطَأ أم أصاب، ركّاب الجهالات ، خبّاط عشوات ظُلْمة، لا يعتذر مما لا يعلم فيسلم، ولا يعض على العلم بضرس قاطع فيغنم، تبكى منه الدماء، وتصرخ منه المواريث، وتُستحل بقضائه الفروج الحرام، لا مَلِى والله بإصدار ماورد عليه، ولا هو أهلٌ لما فرّط به،، أولئك الذين حلّت عليهم النياحة والبكاء أيام حياة الدنيا.

ووصف عليّ عليه السلام علماء الآخرة فى حديث كهيل بزياد الذى يقول فيه الناس ثلاثة، عالم ربّانى، يعنى عالما بالربوبية فنسبه إلى رب، كما سماهم اللّه فى قوله كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب الآية، فسمى العالم بكتابه ربانيا، والدارس له ربانياً، فهذا قد جمع العلم والعمل. وكذلك يقال العالم الربانى هو الذى يعلَم ويعمل ويعلّم الناس الخير، قال فذاك الذى يُدعى عظيما فى ملكوت السماء. وقال تعالى فى تقدمتهم لولا ينهاهم الربأنيون والأحبار، فقدّم الربانيين على الأحبار وهم علماء الكتب. وكذلك رويناه عن مجاهد قال الربّانيون فوق الأحبار درجة. وقال غيره والأحبار فوق الرهبان، يعنى علماء القلوب، أرفع من علماء الألسنة، والعلماء بالكتب أفضل من العبّاد بدرجة، وقد ضمّهم اللّه تعالى إلى أنبيائه فى النصرة له والصبر معه فى قوله تعالى وكأيّنْ من نبى قُتل معه ربّيون كثير، ثم وصفهم بالثبات لأمره والقوة فى دينه والصبر لحكمه فى تمام الآية وربّيون، جمع ربّى، يقال ربّى وربّانى، فجمْع ربّى ربّيون، وجمع ربّانى ربانيون. وكذلك جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يشفع يوم القيامة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء، فقدم العلماء على الشهداء، لأن العالم إمام أمة فله مثل أجور أمته، والشهيد عمله لنفسه. وفى خبر آخر حبْر العلماء يوزن بدم الشهداء، فأعلى حال الشهيد دمه، وأدنى وصف العالم حِبْره، فسوّى بينهما وزاد العالم على الشهيد بأعلى مقامه.

وكان عليّ عليه السلام يقول العالم أفضل من الصائم القائم، والمجاهد فى سبيل الله، وإذا مات العالم ثُلِمَ فى الإسلام ثُلْمه لايسدها إلاّخلَفٌ منه. وقد روينا معناه مسنداً إذا مات العالم ثلم فى الإسلام ثلمة لايسدها ما اطرّد الليل والنهار. ألا موت العالم نجمٌ طُمِس، وموت قبيلة أيسر من موت عالم. ثم قال عليّ عليه السلام فى حديث كُهَيْل ومتعلم على سبيل النجاة، يعنى مريدا طالبا للعلم، متعلما من العلماء بالله تعالى، على طريق معاملةٍ وإخلاص لطلب السلامة، وأن ينجو من الجهل فى الدنيا ومن العذاب فى الآخرة، ثم قال وهَمَجٌ رعاع، الهمج الفَراش الذى يتهافت فى النار لجهله، واحدتهُ هَمَجَة، رعاع خفيف طيّاش لاعقل له، يستفزه الطمع، ويستخفه الغضب، ويزدهيه العُجب ويستطيله الكبر. ثم بكى عليّ عليه السلام، وقال هكذا يموت العلم بموت حامليه، ثم تنفس عند وصف الربّانيين فقال واشوقاه إلى رؤيتهم، يعنى الربّانيين من العلماء. فهؤلاء الذين بكى عليهم شوقاً، هم الذين اشتاق رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم قبله، فقال واشوقاه إلى لقاء إخوانى، ووَدِدْتُ أنى قد رأيت إخوانى، ثم قال هم قوم يجيئون بعدكم، ثم وصفهم فإنما كانوا إخوانه لأن قلوبهم على قلوب الأنبياء عليهم السلام، وأخلاقهم

بمعانى صفات الإيمان وهم أبدال هذه الأمة جاء فى وصفهم مايجلّ عن الوصف. هم على ثلاث طبقات: صدّيقون وشهداء وصالحون. وإنّ منهم من قلبه على قلب إبراهيم الخليل، ومنهم من قلبه على قلب موسى الكليم وعيسى الروح ومحمد الحبيب صلوات الله عليهم وسلم أجمعين، ومنهم قلبه على قلب جبريل وميكائيل وإسرافيل، والأخوّة تقع بين الاثنين فى المجانسة، وقُرب الشبه فى الأفعال والأخلاق، كما قال الله عز وجل ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا، لما كانوا على أوصافهم فى القلوب من أسرار الكفر واعتقاد الشك جعلّهم إخوانا. وكذلك قال إنّ المبذّرين كانوا إخوان الشياطين، وهؤلاء ليسوا أمثالهم فى الخلقة، ولا بينهم أبوة ولا أمومة، لأن الشياطين من ولّد إبليس، والمبذرين من أولاد آدم عليه السلام، ولكن تشابهت قلوبهم فى المواجيد والأخلاق والأفعال، فآخى بينهم للتشابه، فمن كان من علماء الآخرة فعقله يستضئ من أنوار قلبه، وفهمه ينبئ عن استنباط علمه، ومشاهدته وأخلاقه عل معانى يقينه وقوته، وطريقه وسلوكه فى منهاج سنّته وسبيله، فهو من إخوانه وإخوان النبيين الذين اشتّاق إلى رؤيتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهم الغرباء بين الملأ الذين قال بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً فطوبى للغرباء، قيل ومَنْ الغرباء قال الذين يُصلحون إذا فسد الناس، وفى لفظ آخر الذين يُصلحون ما أفسده الناس من سنّتى، والذين يُحيُون ما أمات الناس من سنّتى، يعنى أنهم يُظهرون طريقته التى تركها الناس وجهلوها، وفى خبر آخر هم المتمسكون بسنّتى وما أنتم عليه اليوم، وفى حديث آخر الغرباء ناس قليلون صالحون بين ناس سوء كثيرين، من يبغضهم أكثر ممن يحبهم، فهؤلاء الغرباء الذين قد أنعم الله عليهم بمرافقة النبيّين فى أعلى علِيّين، فقال مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين إلى قوله رفيقا.

وقد كان الثورى يقول اذا رأيتَ العالم كثير الأصدقاء فاعلم أنه مخلِّط. وقال أيضا إذا رأيت الرجل محبباً إلى إخوانه، محموداً فى جيرانه فاعلم انه مُراءٍ. وقد وصف الله تعالى علماء السوء بأكل الدنيا بالعلم، ووصف علماء الآخرة بالخشوع والزهد، فقال تعالى فى علماء الدنيا وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لَتُبيُنُنّه للناس ولاتكتمونه، إلى قوله ثمناً قليلا. وقال فى نعت علماء الآخرة وإنّ من أهل الكتاب لَمن يُؤمِن بالله وما أُنزل إليكم، إلى قوله لهم أجرهم عند ربهم. وقد روينا عن الضحّاك عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم: علماء هذه الأمة رجلان، فرجل آتاه الله علما فبذله للناس، ولم يأخذ عليه طمعا ولم يشتر به ثمنا، فذاك يُصلّى عليه طيرُ السماء وحيتان الماء ودواب الأرض والكرام الكاتبون. يقْدُم على الله تعالى يوم القيامة

سيداً شريفا حتى يرافق المرسلين. ورجل آتاه الله تعالى علما فى الدنيا فضّن به عن عباد الله عز وجل، وأخذ عليه طمعا واشترى به ثمنا، يأتى يوم القيامة ملّجما بلجام من نار، ينادى منادى على رؤس الخلائق هذا فلان بن فلان، آتاه الله تعالى علما فى الدنيا فضّن به على عباد الله تعالى، وأخذ عليه طمعا واشترى به ثمنا، يُعَذّب حتى يُفْرغَ من حساب الناس.

ومن أغلظ ما سمعت فيمن أكل الدنيا بالعلم ماحدثونا عن عُتبة بن واقد عن عثمان بن أبى سليمان، قال كان رجل يخدم موسى صلى الله عليه وسلم فجعل يقول حدّثنى موسى صلى الله عليه وسلم، وحدّثنى موسى نجىّ الله، وحدّثنى موسى كليم الله، حتى أثرى وكثر ماله، ففقده موسى صفى الله، فجعل يسأل عنه فلا يحس له أثراً، حتى جاءه رجل ذات يوم وفى يده خنزير وفى عنقه حبل أسود، فقال له موسى عليه السلام أتعرف فلانا قال الرجل نعم هو ذا الخنزير، فقال موسى يارب أسألك أن تَردّه إلى حاله حتى أسأله فيما أصابه هذا، فوحى الله تعالى إليه ياموسى لو دعوتنى بما دعانى به آدم فَمَنْ دونه ما أجبتك فيه، ولكنى أخبرك لِمَ صنعتُ به هذا، لأنه كان يطلب الدنيا بالدين. وروينا عن الحسن أنه انصرف يوما من مجلسه فاستأذن عليه رجل من أهل خراسان، فوضع بين يديه كيسا فيه خمسة آلاف درهم، وأخرج من حقيبته رُزمة فيها عشرة أثواب من دقيق بُر خراسان، فقال الحسن ما هذا، فقال يا أبا سعيد هذه نفقة وهذه كسوة، فقال له عافاك الله. ضُم إليك نفقتك وكسوتك فلا حاجة لنا بذلك، إنه من جلس مِثْل مجلسى هذا وقَبِلَ من الناس مِثْلَ هذا لَقِىَ الله تعالى يوم القيامة لاخلاَق له. وفى خبر إن العبد ليُنْشَرَ له من الثناء ما بين المشرق والمغرب وما يزن عند الله جناح بعوضة.

وعلماء الدنيا الطالبون لها بالعلم الآكلون لها بالدين، المتخنون الأصدقاء والأخلاء من أبنائها، المكْرِمون المحبون لهم، المقبلون بالبِشر والبشاشة عليهم، هم معروفون فى كل زمان بأوصافهم ولَحْن قولهم وسيماهم. وقد روينا فى مقامات علماء السوء حديثا شديدا نعوذ بالله من أهله ونسأله أن لايبلونا بمقام منه، فرويناه مرة مسنداً من طريق، ورويناه موقوفا على معاذ بن جبل رضى الله عنه، وأنا أذكره موقوفا أحبُّ إلىّ. حدثونا عن منذر بن على عن أبى نعيم الشامى عن محمد بن زياد عن معاذ بن جبل، يقول فيه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من فِتنْة العالم أن يكون الكلام أحب إليه من الاستماع. وفى الكلام تنميق وزيادة، ولايُؤمَن على صاحبه الخطأ، وفى الصمت سلامة وعلم. ومن العلماء من يخزن علمه فلا يحب أن يوجد عند غيره فذلك فى الدرك الأول من النار. ومن العلماء من يكون فى علمه بمنزلة السلطان، فإن رُدّ

عليه شئ من علمه أوتهاون بشئ من حقه فغضب فذلك فى الدرك الثانى من النار. ومن العلماء من يجعل حديثه وغرائب علمه لأهل الشرف واليسار، ولايرى أهل الحاجة له أهلا، فذلك فى الدرك الثالث من النار. ومن العلماء من يَنْصِب نفسه للفُتيا فيُفتى بالخطأ، والله عز وجل يبغض المتكلفين، فذلك فى الدرك الرابع من النار. ومن العلماء من يتكلم بكلام اليهود والنصارى ليغزر به علمه فذلك فى الدرك الخامس من النار. ومن العلماء من يتخذ علمه مروءة ونبلا وذِكْراً فى الناس فذلك فى الدرك السادس من النار. ومن العلماء من يستفزه الزهو والعُجب فإن وَعَظ عنُف، وإن وُعِظَ أنِف فذلك فى الدرك السابع من النار. عليك بالصمت فبه تغلب الشيطان، وإياك أن تضحك من غير عجَب، أو تمشى فى غير أَرَب.

وقد روينا حديثا يدل على أوصاف علماء الآخرة، وفيه أصول مايدعون الخَلْق إليه من مقامات الإيمان وأسباب الدين والإيقان، رويناه عن شقيق بن إبراهيم البلخى عن عبّاد بن كثير عن أبى الزبير عن جابر، ذكره عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووافقته أنا على جابر بن عبد الله، قال لاتجلسوا عند كل عالم إلاّ عالم يدعوكم من خمس إلى خمس، من الشك إلى اليقين، ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن الرغبة إلى الزهد، ومن الكبر إلى التواضع، ومن العداوة إلى النصيحة. ومما يدلك أن علم اليقين والتقوى، وعلم المعرفة والهدى، هو العلم المذكور المقصود عند السلف، أن الصحابة والتابعين كانوا يشفقون من فقد ذلك ويخافون عدمه، ويخبرون عن رفعه وقِلّته فى آخر الزمان، وإنما يعنون بذلك **علم القلوب والمشاهدات** الذى هو نتيجة التقوى، **وعلم المعرفة واليقين** الذى هو من مزيد الإيمان وثمرة الهدى، فإذا فُقِدَ المتقون وقلّ الخائفون وعَدِمِ الزاهدون، ذهبت هذه العلوم، لأنها قائمة بهم موجودة عندهم، هم أربابها والناطقون بها، وهى أحوالهم وطرائقهم. هم السالكون لها والقائمون بها. فلأجل معرفة الصحابة والتابعين عزّة ذلك كانوا يبكون على فقده. وقد وصف اللّه العلماء بالزُهد فى الدنيا والاستصغار لها، ويعمل الصالحات والإيمان بها. كما وصف أبناء الدنيا بالرغبة فيها والاستعظام لها، قال تعالى فى معنى ذلك فخرج على قومه فى زينته، قال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ما أوتى قارون، إنه لذو حظ عظيم، وقال الذين أوتوا العلم ويلكم، ثواب اللّه خير لمن آمن وعمل صالحا، ثم قال عز وجل ولا يلّقاها إلاّ الصابرون، أى لا يلقى هذه الحكمة إلاّ الصابرون عن زينة الدنيا التى خرج فيها قارون.

وروينا عن جندب بن عبد اللّه البجلى، قال كنّا عند رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم غلمانا

حَزَاوِرَة، فيعلّمنا الإيمان قبل القرآن، ثم تعلمنا القرآن فازددنا إيمانا. وعن ابن مسعود قال أنزل القرآن ليُعمل به فاتخذتم دراسته عملا، وسيأتى قوم يُثقفونه تثقيف الغناء، ليسوا بخياركم. وفى لفظ آخر يُقيّمونه إقامة القدْح، يتعجلونه ولا يتأجلونه. وروينا عن ابن عمر وغيره لقد عشنا برهة من دهرنا، وإنّ أحدنا يُؤتَى الإيمان قبل القرآن، وتنزل السورة فيتعلم حلالها وحرامها، وآمرها وزاجرها، وما ينبغى أن يتوقف عنده منها، كما تتعلمون أنتم اليوم القرآن. ولقد رأيت رجالا يُؤتَى أحدهم القرآن قبل الإيمان، فيقرأ ما بين فاتحته إلى خاتمته لا يدرى ما آمره ولا زاجره، وما ينبغى أن يقف عنده، وينثره نثر الدّقَل. وفى الخبر الآخر بمعناه كنا أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أوتينا الإيمان قبل القرآن، وسيأتى بعدكم قوم يؤتون القرآن قبل الإيمان، يُقيّمون حروفه ويُضيّعون حدوده، ويقولون قرأنا فَمَنْ أقرأ منا، وعلِمنا فمَن أعلم منا، فذلك حظهم منه. وفى لفظ آخر أولئك شرار هذه الأمة.

فأما العِلم المأثور الذى نقله خَلَف عن سلَف، والخبر المرسوم فى الكتب المستوْدَع فى الصحف، الذى يسمعه من غَبَر عمن قَدِم، فهذا علم الأحكام والفُتيا، وعلم الإسلام والقضايا، طريقُه السمع، ومفتاحُه الاستدلال، وخزانته العقل، وهو مُدوّن فى الكتب ومُحبّر فى الورق، يتلقاه الصغير عن الكبير بالألسنة، وهو باق ببقاء الإسلام، وموجود بوجود المسلمين، لأنه حجة اللّه تعالى على عباده، ومحجة العموم من خلْقه، فَضَمِنَ إظهاره، فلم يكن ليَظْهر إلا بحمَلَة تُظهِرُه، ونَقَلَة تحمِلُه، فقال تعالى ليُظهره على الدين كله ولو كره المشركون، وكما قال الرسول صلى الله عليه وسلم بمعناه وعلم ظاهر على اللسان فذلك حجة الله تعالى على خَلْقه، وقال صلى الله عليه وسلم تسمعون ويُسمع منكم، ويُسمَع ممن سمع منكم، فأخبر صلى الله عليه وسلم بالعلِم العتيد المستودع ظهور الكتب، الذى هو ظاهر الدين، وفى جهله وَعَدمه وجود الشرك. كما ضَمِنَ الله تعالى تَبْقِيَة الإسلام على كره المشركين. وقال صلى الله عليه وسلم رحم الله من سَمِعَ منا حديثا فبلّغه كما سمعه، فرب حامل فقه غير فقيه، ورب حامل فقه إلى مَنْ هو أفقه منه. وقد أخبر أن حامل الفقه قد يكون غير فقيه القلب إذا لم يعمل بعلمه، وأنه قد يحمله إلى من هو أفقه منه إذا عمل به وإذا وَعاه، كما قال فى الخبر الآخر رُبّ مُبلّغ أوعى مِن سامع، فمدحه بالعمل به إذا وعاه، فتذكّر به وتفكّر فيه وإن لم يكن سمعه منه صلى الله عليه وسلم. وقال الله سبحانه وتعالى وتعيها أذنٌ واعية، يعنى أذُن القلب الحافظة ماسمعت، الذاكرة لما وعت. كما قال تعالى إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، يعنى أصغى بسمعه إلى سامعه

وشهد بقلبه ما سمعه من شاهده. وقد جاء فى تفسير قوله تعالى أذنٌ واعية، قال أذنٌ عقلَت عن الله تعالى أمرَه ونهيَه فوعته وعملت به، كما وصف سبحانه وتعالى المؤمنين الذين نعتّهم بقوله فى تمام وصفهم والحافظون لحدود الله تعالى.

وقد روينا عن علّى رضى الله عنه اطلبوا العلم تُعرفوا به، واعملوا به تكونوا من أهله. وقال أيضا رضى الله عنه إذا سمعتم العلم فاكظموا عليه ولا تُخلطوه بهَزل فتمجُّه القلوب. وقال بعض السلَف مَنْ ضحك ضحكة مجّ مَجّةً من العلم. وقال الخليل بن أحمد رحمه الله ليس العلم ماحواه القِمَطْر، إنما العلم ماوَعَاه الصدر. وإذا جمع العالم ثلاثاً تمت النعمة به على المتعلم: الصبر والتواضع وحُسن الخلُق. وإذا جمع المتعلم ثلاثاً تمت النعمة به على العالم: العقل والأدب وحُسن الفهم. والله أعلم.

ذكر وصف العلم وطريقة السلف وذم ما أحدث المتأخرون من القصص والكلام

لابد للعالم بالله تعالى من خمس هى علامة علماء الآخرة: الخشية والخشوع والتواضع وحسن الخُلُق والزهد. قال الله تعالى إنما يخشى الله من عباده العلماء، وقال تعالى خاشعين لله الآية، فلابد له من التواضع وحُسن الخلق، وقال الله عز وجل واخفضْ جناحك للمؤمنين، وقل إنى أنا النذير المبين، وقال تعالى فَبِما رحمةٍ من الله لِنْتَ لهم الآية - والزهد فى الدنيا، قال الله تعالى وقال الذين أوتوا الكتاب ويلكم ثواب، الله خَير. فمن وُجد فيه هذه الخلال فهو من العلماء بالله عز وجل.

واعلم أنه إنما يستبين العالم عند المشكلات فى الدين، ويُحتاج إلى العارف عند شبهاتٍ حاكت الصدور، كما قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه لاتزالون بخير ما إذا حاكَ فى صدر أحدكم شئ وَجَد من يُخبره به ويُشفيه منه، وايم الله أوشك أن لاتجدوا ذلك. وكما قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أى الناس أعلم، فقال الله ورسوله أعلم، فقال أعلمهم بالحق إذا اشتبهت الأمور ووقعت المشكلات وإنْ كان يزحف على إسته، فكذلك إذا اختلف الناس وإن كان فى عمله تقصير. وكما قال فى حديث عمران بن حُصَيْن إن الله تعالى يحب البصر الناقد عند ورود الشُبهات، والعقل الكامل عند هجوم الشهوات، ويحب السخاء ولو على تمرات، ويحب الشجاعة ولو على قتل الحيّات.

وقد حصلنا فى زماننا هذا فى مثل ماخافه ابن مسعود، لأن مشكلة لو وردت فى معانى

التوحيد، وشبهة لو اختلجت فى صدر مؤمن من معانى صفات المُوَحد، وأردت كشف ذلك على حقيقة الأمر بما يشهده القلب المُوفَق، ويثلج له الصدر المشروح بالهدى، كان ذلك عزيزا فى وقتك هذا، ولكُنتَ فى استكشاف ذلك بين خمسة نفر، مبتدع ضال يخبرك برأيه عن هواه فيزيدك حيرة، أو متكلم يُفتيك بقصور علمه عن شهادة الموقنين، وبقياس معقوله على ظاهر الدين، وهذا شبهة فكيف تنكشف به شبهة، أو صوفى شاطح تائه غالط يجاوز بك الكتاب والسنة لايباليهما، ويخالف بقوله الأئمة لايتحاشاها فيجيبك بالظن والوسواس والحدْس والتمويه، ويمحو الكوْن والمكان، ويُسقط العلم والأحكام، ويُذهب الأسماء والرسوم، وهؤلاء تائهون فى مفازة التيه لم يقفوا على المَحجة، قد غرقوا فى بحر التوحيد، لم يُجعلوا أئمة المتقين ولا حُجةً للمتقين، وهذا ساقط القول إذ ليس معه حجة، ولا هو على سنن المحجّة، ومُفتٍ عالمٍ عند نفسه موسوم بالفقه عند أصحابه، يقول لك هذا من أحكام الآخرة ومن علم الغيب لانتكلم فيه لأنا لم نُكلفه، وهو فى أكثر مناظرته يتكلم فيما لم نُكلف، ويجادل فيما لم يَنطق به السلف، ويتعلم ويُعلّم ما علِمه بتكلُّف، ولا يَعلم المسكين أنه كُلِفَ علم يقين الإيمان وحقيقة التوحيد ومعرفة إخلاص المعاملة، وعِلْمَ مايقدح فى الإخلاص ويخرج من جملته قبل ماهو فيه، لأنه متكلِف لبعض ماهو يبتغيه، لأن علم الإيمان وصحة التوحيد، وإخلاص العبودية للربوبية، وإخلاص الأعمال من الهوى الدنيوية وما يتعلق بها من أعمال القلوب، هو من الفقه فى الدين ونعت أوصاف المؤمنين، إذ مقتضاه الإنذار والتحذير لقوله تعالى، ليتفقهوا فى الدين ولِيُنذروا قومهم الآية، ولقول الرسول صلى الله عليه وسلم تعلموا اليقين فإنى متعلم معكم، ولقول الصحابة رضى الله عنهم تعلّمنا الإيمان ثم تعلّمنا القرآن فازددنا إيمانا، فهذا مزيد الهداية بالإيقان، وهو زيادة المؤمنين فى الإيمان، كما قال تعالى فزادهم إيمانا، وقال عز وجل ويزيد الله الذين اهتدوا هدى. ولا يشعرأن حسن الأدب فى المعاملة بمعرفةٍ ويقين هو من صفات الموقنين، وذلك هو حال العبد فى مقامه بينه وبين ربه عز وجل، ونصيبه من ربه تعالى وحظه من مزيد آخرته، وذلك معقود بشهادة التوحيد الخالصة، المقترنة بالإيمان من خفايا الشرك وشُعَب النفاق، وهو مقترن بالفرائض وفَرض فَرْضها الإخلاص بالمعاملة، وإن علِمَ ماسوى هذا مما قد أشْرِب قلبه وحُبب إليه من فضول العلوم وغرائب الفهوم إنما هو حوائج الناس ونوازلهم، فهو حجابٌ عن هذا واشتغالٌ عنه، فآثر هذا الغافل لقلة معرفته بحقيقة العلم النافع، ما زيّن له طلبه وحبّب إليه قصده، آثر حوائج الناس وأحوالهم على حاجته وحاله، وعمل فى أنصبتهم منه فى عاجل دنياهم من نوازل طوارقهم

وفتياهم، ولم يعمل فى نصيبه الأوفر من ربه الأعلى لأجل آخرته التى هى خير وأبقى، إذ مرجعه إليها ومثواه المؤبدّ فيها، فآثر التقرب منهم على القُربة من ربه عز وجل، وتَرَك الشغل بهم حظه من الله تعالى الأجزل، وقدّم التفرّغ لهم على فراغ قلبه لما قدّم لغده من تقواه، بالشغل بخدمة مولاه وطلب رضاه، واشتغل بصلاح ألسنتهم عن صلاح قلبه، وظواهر أحوالهم عن باطن حاله. وكان سبب ما بلى به حب الرياسة وطلب الجاه عند الناس، والمنزلة بموجب السياسة، والرغبة فى عاجل الدنيا وعزها بقلة الهّمة وضعف النية فى عاجل الآخرة وذخره، فأفنى أيامه لأيامهم، وأذهب عمره فى شهواتهم، ليسميه الجاهلون بالعلم عالما، وليكون فى قلوب البطّالين عندهم فاضلا، فورد القيامة مفلسا، وعندما يراه من أنصبة المقرّبين مبلسا، إذ فاز بالقرب العاملون، وربح الرضا العالمون، ولكن أنيّ له وكيف بنصيب غيره وقد جعل اللّه تعالى لكل عمل عاملا، ولكل علم عالما. أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب، كلّ مُيسّر لما خُلق له. هذا فصل الخطاب بينهما، فإن الأمة لم تختلف إن علْمَ التوحيد فريضة، سيّما إذا وقعت الشبهات، وأُدخلَت فيه المشكلات، وإنما اختلفوا فى مسئلتين، أى شيء هو التوحيد، وفى كيفية طلبه والتوصل إليه، فمنهم من قال بالبحث والطلب، ومنهم من يقول بالاستدلال والنظر، ومنهم من قال بالسمع والأثر، وقال بعضهم بالتوقيف والتسليم، وقال بعض الناس يدرك دَرْكَه بالعجز والتقصير عن بلوغ دركه.

والرجل الخامس من العلماء هو صاحب حديث وآثار وناقل رواية الأخبار، يقول لك إذا سألته اعتقدْ التسليم وأمر الحديث كما جاء ولا تفتشْ، وهذا يتلو المفتى فى السلامة، وهو أحسنهم طريقة وأشبههم بسلف العامة خليقةً، ليس عنده شهادة يقين ولا معرفة بحقيقة ما رآه، ولا هو مشاهد واصف لمعنى ما نقله، إنما هو للعلم رواية، وللأثر والخبر ناقلة عن غير خبر يخبره، ولا فَقَه فى نقله، فهو على بيّنة من ربه وليس يتلوه شاهد منه. وقد كان الزهرى يقول حدثنّى فلان وكان من أوعية العلم، ولا يقول وكان عالما. وكان مالك بن أنس رحمه اللّه يقول أدركت سبعين شيخا من التابعين، منهم عبّاد، ومنهم مُستجاب الدعاء، ومنهم من يُستسقى به، ماحملت عنهم علماً قط. قيل ولِمَ ذاك، قال لم يكونوا من أهل هذا الشأن، وفى رواية لم يكونوا يدرون ما يُحدّثون به، ولم يكن لهم فقه فيما يُسألون عنه. قال مالك وتقدّم علينا ابن شهاب الزهرى وهو حديث السن، فنزدحم عليه حتى لا نصل إليه، لأنه كان عالما بما يُحدّث به. فهذا بمعنى ما رُوى عن رسول الله صلى اللّه عليه وسلم رُبّ حامل فقه غير فقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه.

وقال بعض السلَف ما كانوا يعدون عِلْم مَنْ لا يعرف اختلاف العلماء علماً. وقال آخر من لم يعرف اختلاف العلماء لم يحلّ له أن يفتى ولم يُسم عالما. وقال قتادة وسعيد بن جبير أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس. وقيل للإمام أحمد رضى الله عنه إذا كتب الرجل مائة ألف حديث له أن يفتي؟ قال لا. قيل، فمائتى ألف حديث؟ قال لا. قيل فثلاثمئة ألف حديث؟ قال أرجو.

وفى التوراة مكتوب الطبيب الحاذق للعلّة الباطنة يصلح. وكتب سلمان الفارسى من المدائن إلى أبى الدرداء، وكان قد آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما فيمن آخي، يا أخى بلغنى أنك أقعدت طبيبا تداوى المرضي، فانظر فإن كنت طبيبا فتكلم فإن كلامك شفاء، وإن كنت متطبباً فالله الله، لا تقتل مسلما. قال فكان أبو الدرداء يتوقف بعد ذلك إذا سئل عن شيء. وسأله إنسان عن شيء، فأجابه ثم قال ردّوه، فقال له أعد عليّ فأعاد، فقال متطبب والله. فرجع فى جوابه. ولعمرى أنه قد جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من تطبب ولم يُعلم منه طب فقَتَل فهو ضامن. وقد كان ابن عباس رضى الله عنه يقول سلوا جابر بن زيد فلو نزل أهل البصرة على فتياه لوسعهم. وكان من صالحى التابعين. وكان ابن عمر رضى الله عنهما إذا سئل عن شيء يقول سلوا سعيد بن المسيب. وكان أنس بن مالك رضى الله عنه يقول سلوا مولانا الحسن فإنه قد حفظ ونسينا. وقال بعض البصريين قَدِمَ علينا رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتينا الحسن فقلنا ألا تذهب إلى هذا الصحابى فنسأله عن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وتجيء معنا، قال نعم فاذهبوا، قال فجعلنا نسأله عن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجعل يحدّثنا حتى حدّثنا عشرين حديثا. قال والحسن يُنصت يستمع إليه، ثم جثا الحسن على ركبتيه فقال يا صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبرنا تفسير مارويت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نفقه فيه، فسكت الصحابى وقال ما عندى إلاّ ما سمعت، قال فابتدأ الحسن رحمه الله يفسّر ما رواه، فقال أما الحديث الأول الذى حدّثتنا فإن تفسيره كيت وكيت، والحديث الثانى تفسيره كذا وكذا، حتى سرد عليه الأحاديث كلها التى حدّثنا بها وأخبرنا بتفسيرها، قال فلا ندرى نعَجب من حُسن حفظه إياه وأدائه الحديث، أو من علمه وتفسيره. قال فأخذ الصحابى كفاً من حَصَى وحَصَبَنا به ثم قال، تسألونى عن العلم وهذا الحَبْر بين أظهركم: فهؤلاء أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم يردون الأمور فى الفتيا وعلم اللسان إلى من هو دونهم فى القَدْر والمنزلة، وهو فى علم التوحيد والمعرفة

والإيمان فوقهم درجات، ولا يرجعون إليهم فى الشبهات، ولا يُرَدون إليهم فى علم المعرفة واليقين، فهذا كما قيل إنما العلم نور يقذفه اللّه تبارك وتعالى فى قلوب أوليائه، فقد يكون ذلك تفضيلا للنظراء بعضم على بعض، وقد يكون تخصيصا للشباب على الشيوخ، ولمن جاء بعد السلف من التابعين، وربما كان تَكْرُمة للخاملين المتواضعين، لينبه عليهم ويَعرفون شأنهم، ليُعظَموا ويُرَفَعوا كما قال الله تعالى ونريد ونريد أن نَمُنّ على الذين استضعُفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة. والنور إذا جُعل فى الصدر انشرح القلب بالعلم ونظر باليقين، فنطق اللسان بحقيقة البيان، وهو الحكمة التى يودعها الله تعالى فى قلوب أوليائه، كما جاء فى تفسير قوله عز وجل وآتيناه الحكمة وفصْل الخطاب، قيل الإصابة فى القول فكأنه يوفقه للحقيقة، وقوله تعالى يؤتى الحكمة من يشاء، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا. قيل الفهم والفطنة، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى وصف الهداية حين تلا قوله عز وجل فمن يُرِدْ الله أن يَهدَيه يشرح صدره للإسلام، فقيل يارسول الله ماهذا الشرح، فقال إن النور إذا قُذف فى القلب انشرح له الصدر وانفسح، قيل فهل لذلك من علامة، قال نعم التجافى عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزوله. فَذَكَر سببه الزهد فى الدنيا، والإقبال على خدمة المولى، وحُسن التوفيق والإصابة فى العلم، مواهب من الله عز وجل وأثرة يَختص بها من يشاء. كما سئل أبو موسى الأشعرى وهو أمير الكوفة عن رجل قُتِل فى سبيل الله مُقبلا غير مدبر أين هو ، فقال أبو موسى فى الجنة، فقال ابن مسعود للسائل أعد علَى الأمير فُتياكَ فلعله لم يفهم، قال السائل قلت أيها الأمير ماقولك فى رجل قُتل فى سبيل الله فقُتل مقبلا غير مدبر، أين هو، فقال أبو موسى فى الجنة، فقال ابن مسعود رضى الله عنه أعدْ على الأمير فلعله لم يفهم، فأعاد عليه ثلاثا، كل ذلك يقول أبو موسى فى الجنة، ثم قال ما عندى غير هذا، فما تقول أنت؟ فقال ابن مسعود لكنى لا أقول هكذا، قال فما قولك، فقال أقول إنْ قُتل فى سبيل الله فأصاب الحق فهو فى الجنة، فقال أبو موسى صَدَق لاتسألونى عن شئ مادام هذا الحَبْر بين أظهركم.

والقول فى تسليم أخبار الصفات والسكوت عن تفسيرها كما قال أصحاب الحديث، إلاّ أنّ بمعرفة معانى الأسماء والصفات وشهودها يُنفَى الظن والوسواس فيها. وترك التشبيه والتمثيل بها، والطمأنينة إلى اليقين بالمعرفة بمشاهدتها، هو مقام الموقنين. واعتقاد أنها صفات لله تعالى يتجلى بها وبما شاء من غيرها، بلا حدّ ولاعدد، يظهر بصفةٍ صفةٍ كيف شاء، غير

موقوف على صفة، ولا محكوم عليه بصورة بلا إظهار غيْرته، بل هو كيف ظهر وبأى وصف تجلّى، مع نفى الكيفية والمِثْلية لفقد الجنس والجوهرية، هو مقام المُقرّبين من الشهداء، وهؤلاء هم الصدّيقون وخصوص الموقنين، فمن عدل به عن وجهة هؤلاء ولم يواجَه بشهادتهم عَدَل إلى التسليم والتصديق، فوقف عنده فكان معقله واستراحته، وليس بعد هؤلاء مقام يُمدح ولا وصف يُذكر، فمن فتّش ذلك بعقله وفسّره برأيه دخل عليه التشبيه أو خرج إلى النفى والإبطال.

ومن الدليل على فضل هذا العلم على سائر العلوم ماجاء فى الأخبار المأثورة عن النبى صلى الله عليه وسلم، وعن الصحابة والتابعين، فى فضل مجالس الذكر وفضل الذاكرين إنما يريدون به علم الإيمان والمعرفة وعلوم المعاملات، والتفقه فى بصائر القلوب، والنظر بعين اليقين إلى سرائر الغيوب، وليس يريدون به مجالس القصص، ولايعنون بذلك القُصّاص، لأنهم كانوا يروْن القِصص بدعة، ويقولون لم يُقَص فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أبى بكر ولاعمر حتى ظهرت الفتنة، فلما وقعت الفتنة ظهر القُصّاص، ولما دخل علىّ رضى الله عنه البصرة، جعل يُخرج القُصّاص من المسجد ويقول لايُقَص فى مسجدنا، حتى انتهى إلى الحسن وهو يتكلم فى هذا العلم فاستمع إليه ثم انصرف ولم يُخرجه. وجاء ابن عمر إلى مجلسه من المسجد فوجد قاصّاً يقص، فوجه إليه صاحب الشرطة أنْ أخرجه من المسجد فأخرجه، فلو كان القصص من مجالس الذكر، والقُصّاص علماء، لما أخرجهم ابن عمر من المسجد، هذا مع ورعه وزهده. وقد روينا عن ابن شَوْذب عن أبى التيّاح قال قلت للحسن إمامُنا يقُص فيجتمع الرجال والنساء فيرفعون أصواتهم بالدعاء ويمدون أيديهم، فقال الحسن رفْع الصوت بالدعاء بدعة، ومدّ الأيدى بالدعاء بدعة. وروى أبو الأشهّب عن الحسن القصص بدعة. وقيل لابن سيرين لو قصصت على إخوانك، فقال قد قيل لا يتكلم على الناس إلاّ أحد ثلاثة: أمير أو مأمور أو أحمق، فلست بأمير ولا مأمور، وأكره أن أكون الثالث. وروينا عن عون بن موسى عن معاوية بن قرة قال، سألت الحسن البصرى، قلت أعُود مريضا أحب إليك أو أجلس إلى قاص؟ فقال عدْ مريضَك. فقلت أشيّع جنازة أحب إليك أو أجلس إلى قاص؟ قال شيّع جنازتك. قلت وإنْ استعان بى رجل فى حاجة أعنته أو أجلس إلى قاص؟ قال اذهب فى حاجتك – حتى جعله خيراً من مجالس الفراغ. فلو كانت مجالس الذكر عندهم هى مجالس القُصّاس، ولو كان القصص هو الذكر، لما وسع الحسن أن يثبط عنه ولا يُؤثر عليه كثيراً من الأعمال، لأنه قد كان يدعو إلى الله تعالى بالتوحيد ويتكلم فى علم المعرفة واليقين.

والذاكرون لله تعالى وحضور مجلس الذكر من مزيد الإيمان. وقد رفع الله تعالى مقام الذاكرين فوق مقام المؤمنين فى قوله تعالى – إن المسلمين والمسلمات، والمؤمنين والمؤمنات، فجعل الذاكرين والذاكرات أعلى المقامات. وقد روينافى خبر أبى ذر حضور مجلس ذكر أفضل من صلاة ألف ركعة، وحضور مجلس علم أفضل من عيادة ألف مريض، وحضور مجلس علم أفضل من شهود ألف جنازة. قيل يارسول الله ومنْ قراءة القرآن؟ فقال وهل تنفع قراءة القرآن إلاّ بعلم. وقال بعض السلف حضور مجلس ذِكر يُكفّر عشرة من مجالس الباطل. وأما عطاء فإنه قال مجلس ذِكر يُكفّر سبعين مجلسا من مجالس اللهو. وحدثونا عن معاذ قال رآني يونس بن عبيد وأنا فى حلقة المعتزلة فقال تعال فجئت ، فقال إن كنت لابد فاعلا فعليك بحلقة القُصّاص.

وقد كان **الحسن البصرى** أحد المُذَكِرين، وكانت مجالسه مجالس الذكر يخلو فيها مع إخوانه وأتباعه من النُسّاك والعُبّاد فى بيته، مثل **مالك بن دينار وثابت البنّانى وأيوب السخستانى ومحمد بن واسع وفرقد السبخى وعبد الواحد بن زيد**، فيقول هاتوا انشروا النور، فيتكلم عليهم فى هذا العلم من علم اليقين والقدرة، وفى خواطر القلوب وفساد الأعمال ووسواس النفوس. وربما قنّع بعض أصحاب الحديث رأسه فاختفى من ورائهم ليسمع ذلك، فإذا رآه الحسن قال له يالكع وأنت ماتصنع ههنا، إنما خلونا مع إخواننا نتذاكر. والحسن رحمه الله هو إمامنا فى هذا العلم الذى نتكلم به، إثره نقفو، وسبيله نتبع، ومن مشكاته نستضيء، أخذنا ذلك بإذن الله تعالى إماما عن إمام ، إلى أن ينتهى ذلك إليه، وكان من خيار التابعين بإحسان. قيل مازال يعى الحكمة أربعين سنة حتى نطق بها، وقد لقى سبعين بدريا، ورأى ثلثمائة صحابى، وولد لليلتين بقيتا من خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه سنة عشرين من التاريخ ، ولد بالمدينة، وكانت أمه مولاة لأم سلَمة زوج النبى صلى الله عليه وسلم ويقال إنها ألقمته ثديها تعلله حين بكى فدرّثديُها عليه، وكان كلامه يُشبّه بكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم. ورأى عثمان بن عفان وعلىّ بن أبى طالب ومن بقى فى وقته من العشرة، ثم رأى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من عهد عثمان، ومن سنة نيف وعشرين من الهجرة إلى سنة نيف وتسعين. ومن آخر من مات من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبصرة أنس بن مالك، وبالمدينة سهل بن سعد الساعدى ، ومكة أبو الطُفَيْل، وباليمن أبيّض بن جمال المازنى ، وبالكوفة عبد الله بن أبى أوفى، وبالشام أبو قرصامة.، وبخراسان بُرَيْدة الأسلمى.

ودخلت سنة مائة من التاريخ ولم يبق على وجه الأرض عين تطرف رأت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جميع أطراف الأرض، ثم توفى الحسن فى سنة عشر ومائة. وكان أبو قتادة العدوى يقول عليكم بهذا الشيخ فوالله مارأينا أحداً لم يصحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أشبه بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم منه. وكانوا يقولون كنا نشبّهه بَهدْى إبراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم فى حلمه وخشوعه ووقاره وسكينته، فكان على شمائله. ونذرت امرأة بالبصرة نذرا إنْ فعل الله تعالى ذلك بها أن تنسج ثوبا من غزلها وَصَنْعَتُهُ وتكسوه خير أهل البصرة، فرأت تمام نذرها فوفّت بما نذرت، ثم سألت مَنْ خير أهل البصرة فقالوا الحسن. وكان الحسن رضى الله عنه أول من أنهج سبيل هذا العلم وفتق الألسنة به ونطق بمعانيه، وأظهر أنواره وكشف به قناعه. وكان يتكلم فيه بكلام لم يسمعوه من أحد من إخوانه، فقيل له يا أبا سعيد إنك تتكلم فى هذا العلم بكلام لم نسمعه من أحد غيرك فممن أخذت هذا، فقال عن حُذَيْفة بن اليمان، قيل وقالوا لحذيفة بن اليمان نراك تتكلم فى هذا العلم بكلام لا نسمعه من أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فمن أين أخذته، فقال خصّنى به رسول الله صلى الله عليه وسلم - كان الناس يسألونه عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن أقع فيه، وعلمت أن الخَير لا يسبقنى وقال مرة فعلمت أن من لا يعرف الشر لا يعرف الخير. وفى لفظ آخر كان الناس يقولون يارسول الله ما لمن عمل كذا وكذا، يسألونه عن فضائل الأعمال، وكنت أقول يارسول الله مايُفسد كذا وكذا، فلما رآنى أسأل عن آفات الأعمال خصّنى بهذا العلم. وكان حذيفة قد خُصّ بعلم المنافقين، وأُفرد بمعرفة علم النفاق، وبسرائر العلم ودقائق الفهم وخفايا اليقين من بين الصحابة، فكان عمر وعثمان وأكابر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونه عن الفِتَن العامة والفتن الخاصة، ويرجعون إليه فى العلم الذى خُصّ به، ويسألونه عن المنافقين وهل بقى منهم ممن ذكر الله تعالى وأخبر عنهم أحد. فكان يُخبر بأعدادهم ولا يذكر أسماءهم. وكان عمريستكشفه عن نفسه هل يعلم فيه شيئا من النفاق فبرّأه منه، ثم يسأله عن علامات النفاق وآية المنافق فيخبر من ذلك بمايصلح مما أُذن له فيه، ويستعفى مما لا يجوز له أن يخبر به فيُعذرفى ذلك. وكان عمر رضى الله عنه إذا دعى إلى جنازة ليصلى عليها نظر فإن حضر حذيفة صلى عليها وإن لم ير حذيفة لم يصل عليها. وكان حذيفة يُسمَى صاحب السر. وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سئلوا عن علم يقول أحدهم تسألونى عن هذا وصاحب السر فيكم، يعنى حذيفة.

وروينا عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه لما حدّث عن النبى صلى الله عليه وسلم فى فضل مجلس الذكْر لأنْ أقعد مع قوم يذكرون الله تعالى من غَدوة إلى طلوع الشمس أحب إلىّ من أن أعتق أربع رقاب، قال فالتفت إلىّ يزيد الرقاشي وزياد النُميْرى ، فقال لم تكن مجالس الذكر مثل مجالسكم هذه، يقُص أحدكم ويخطب على أصحابه ويسرد الحديث سردا، إنما كنّا نقعد فنذكر الإيمان، ونتدبر القرآن، ونتفقه فى الدين، ونَعُدّ نِعَم الله تعالى علينا. وقد كان عبد الله بن رواحة يقول لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تعالوا حتى نؤمن ساعة، فيجلسون إليه فُيذكّرهم العلم بالله تعالى والتوحيد والآخرة ، وكان يخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد قيامه فيجتمع إليه الناس يذكّرهم الله تعالى وأيامه، ويُفقّهم فيما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فربما خرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم مجتمعون عنده فيسكتون، فيجلس إليهم ويأمرهم أن يأخذوا فيما كانوا فيه، ويقول صلى الله عليه وسلم بهذا أمرت وإلى هذا دعوت. ورُوى نحو هذا عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، وقد كان يتكلم بهذا العلم وقد روينا هذا مفسرا فى حديث جُندب. كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيعلّمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن، فسمّى علم الإيمان إيماناً كماً سماه ابن رواحة، لأن علم الإيمان وصف الإيمان، والعرب تسمى الشئ بوصفه وتسميه بأصله، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مثله تعلموا اليقين أى علم اليقين، وكما قال تعالى وابيضّت عيناه من الحزن أى من البكاء ، فسماه بأصله لأن الحزن أصل البكاء.

وروينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه خرج ذات يوم فرأى مجلسين، أحدهما يدعون الله تعالى ويرغّبون إليه، والآخر يتفقهون فى الدين ويعلّمون الناس، فوقف بينهما ثم قال ، أمّا هؤلاء فيسألون الله تعالى فإن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم، وأمّا هؤلاء فيعلّمون الناس ويفقّهون فى الدين وإنما بُعثت معلما ، ثم عدل إلى الذين يُفقّهون الناس فى الدين ويذكرون الله تعالى فجلس معهم.

ويحكى عن بعض السلف قال دخلت المسجد ذات يوم فإذا بحلقتين، إحداهما يقصُون ويدعُون ، والأخرى يتكلمون فى العلم وفِقْه الأعمال، قال فملتُ إلى حلقة الدعاء فجلست إليهم فحملتنى عيناى فنمت فهتف بى هاتف، أو قال لى شخص: جلستَ إلى هؤلاء وتركتَ مجلس العلم، أما لو جلست إليهم لوجدت جبريل صلى الله عليه وسلم عندهم. فحقيقة الذكر هو العلم بالله تعالى. ألا تسمع إلى مارُوى عن النبى صلى الله عليه وسلم - أفضل الذكر قول لا إله إلاّ

الله. وقال سبحانه وتعالى فى تصديقه فاعلم أنه لا إله إلا الله ، وقال فى مثله فاعلموا إنما أنزل بعلم الله، وأن لا إله إلاّ هو.

ثم إن العلم من الذكر علم المشاهدة، والمشاهدة صفة عين اليقين، فإذا كُشِف غطاء العين شهدتَ معانى الصفات بأنوارها وهو مزيد نور اليقين الذى هو كمال الإيمان وحقيقته، فهنالك ذَكَرْتَ الموصوف بمشاهدة المذكور بنور وصفه. ألم تر إلى قوله تعالى وكانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى، فمن كانت عينه فى كشفٍ من ذِكره شهد المذكور، فعندها ذكر ، ثم توجد حقيقة العلم بعد نسيان الخلق، كقوله تعالى واذكر ربك إذا نسيت، فحقُ الذِكر نسيان ماسواه، كما أن حقيقة الإيمان الكُفر بكل إله، كقوله تعالى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله. وقَال بعض أهل الحديث جاءنى رجل من إخوانى من أهل المعرفة، فقال قد وجدت من قلبى غفله فأريد أن تحملنى إلى مجلس من مجالس الذكر، فقلت نعم، فسمّى له مُذَكِراً يتكلم فى علوم العامة. قال فحضرنا عنده واجتمع الخلْق فأخذ فى شئ من القصص، وذكر الجنة والنار، فنظر إلىّ صاحبى فقال أليس زعمت أن هذا يَذْكُر الله ويذَكُر ربه عز وجل، ويَذكُر أيامه، فقلت نعم هكذا هو عندنا، فقال ما أسمع إلاّ ذكر الخلق، فأين ذكر الله تعالى ؟ ثم توقف ساعة ينتظر منه مايريد من علم المعرفة ومما سمعه من شيوخه الصوفية، قال فليس إلاّ القصص والحكايات ، فالتفت إلىّ وقال قم بنا فإنه لا يسعنى الجلوس لأنه لا نية لى فى ذلك، فقلت أما أنا فاستحى أن أتخطى الناس فاصنْع أنت ماترى، فقام يتخطى الناس حتى خرج. وقد روى الزهرىّ عن سالم عن ابن عمر أنه خرج من المسجد وقال ما أخرجنى إلاّ القَصّاص ولولاه ماخرجت.

وقال ضمرة قلت للثورى رحمه الله نستقبل القاصّ بوجهنا ، فقال ولّوا البدع ظهوركم. وقال ابن عون دخلت على ابن سيرين فقال ماكان اليوم مَن خبر، فقلت نهى الأمير القُصّاص أن يقصوا . وحدثنا عن أبى معمر عن خلف بن خليفة قال رأيت سيأرا أبا الحكم يستاك على باب المسجد وقاص يقص فى المسجد، فجاءه رجل فقال يا أبا الحكم إن الناس ينظرونك، فقال إنى فى خير مما هم فيه، أنا فى سُنّة وهم فى بدعة. وقد فعل الأعمش أبلغ من ذلك دخل البصرة وكان فيها غريبا فنظر إلى قاص فى الجامع وهو يقول حدثّنا الأعمش عن أبى إسحق، وحدثّنا الأعمش عن أبى وائل، قال فتوسّط الأعمش الحلقة ورفع يده وجعل ينتف شعر إبطه فبصر به القاص فقال ياشيخ، ألا تستحى، نحن فى علم وأنت تفعل هذا، فقال له الأعمش الذى أنا فيه أفضل من الذى أنت فيه، قال كيف، قال لأنى فى سُنّة وأنت فى كذب، أنا الأعمش

وماحدثتك مما تقول شيئا. فلما سمع الناس ذكر الأعمش انفضّوا عن القاص واجتمعوا حوله وقالوا حدّثنا يا أبا محمد.

وأخبرونا عن محمد بن أبى هرون أن إسحق حدّثه قال صليت مع الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه صلاة العيد، فإذا قاص يقُص يلعن المبتدعة ويذكر السنّة، فلما قضينا الصلاة وصرنا ببعض الطريق ذكر أبو عبد الله القاص، فقال ما أنفعهم للعامة وإن كان عامة مايحدّثون به كذباً. وأُخبرت عن محمد بن جعفر أن أبا الحرث حدّثه أنه سمع الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه يقول أكذب الناس القَصّاص والسؤال. وحدثونا عنه أيضا أنه قال ما أحوج الناس إلى قاص صدوق لأنهم يذكرون الميزان وعذاب القبر. قلت له أنت تحضر مجالسهم، قال لا. وروينا عن حبيب بن أبى ثابت عن زياد النُمَيْرى قال أتيت أنس بن مالك وهو بالزاوية فقال لى قُص، فقلت كيف والناس يزعمون أنه بدعة، فقال ليس شئ من ذِكْر الله تعالى بدعة، قال فقصصت وجعلت أكثر قصصى ودعائى رجاء أن يؤمن، قال فجعلت أقص وهو يؤمن. وقد كانوا يجعلون الدعاء قصصا. وحدّث يوسف بن عطية عن محمد بن عبد الرحمن الخَزاز، قال فقد الحسن عامر بن عبد الله العنبرى، فقال اذهبوا بنا إلى أبى عبد الله فأتاه الحسن، فإذا عامر فى بيت قد لفّ رأسه وليس فى البيت إلاّ رمل، فقال له الحسن يا أبا عبد الله لم نرك مُنْذ أيام، فقال إنى كنت أجلس هذه المجالس فأسمع تخليطا وتغليطا وإنى كنت أسمع مشيختنا فيما يروون عن نبينا صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول إن أصفى الناس إيمانا يوم القيامة أكثرهم فكرةً فى الدنيا، وأكثر الناس ضحكاً فى الجنة أكثرهم بكاءً فى الدنيا، وأشد الناس فرحاً فى الآخرة أطولهم حزنا فى الدنيا، فوجدت البيت أَخْلَى لقلبى وأقدر لى من نفسى على ما أُريد منها. قال الحسن إما أنه لم يَعْنِ مجالسنا هذه، إنما عَنَى مجالس القُصّاص فى الطرق الذين يخلطون ويغلطون ويقدمون ويؤخرون.

وقد قسّم بعض العلماء المتكلمين ثلاثة أقسام فوصفهم بأماكنهم، فقال المتكلمون ثلاثة، أصحاب الكراسى وهم القُصّاس، وأصحاب الأساطين وهم المفتُون، وأصحاب الزوايا وهم أهل المعرفة. فمجالس أهل العلم بالله تعالى وأهل التوحيد والمعرفة هى مجالس الذِكر، وهى التى جاءت فيها الآثار. وفى الخبر إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا فيها، قيل ومارياض الجنة، قال مجالس الذكر. وفى الحديث أن لله تعالى ملائكة سيّاحين فى الهواء فَضْلاً عن كُتّاب الخَلْق، إذا رأوا مجالس الذكر ينادى بعضهم بعضا ألا هلُموا إلى بغيتكم، فيأتوهم حتى يجلسوا إليهم،

فيحفون بهم ويستمعون منهم، ألا فاذكروا اللّه واذكروا أيامه. وقال وهب بن منبه اليمانى مجلسٌ يُتَنَازع فيه العلم أحب إلىّ من قَدْره صلاة، لعلّ أحدهم يسمع الكلمة فينتفع بها السَنَة أو مابقى من عمره.

وسئل أحمد بن حنبل رحمه اللّه تعالى عن مجالس الذكر وفضلها فرغّب فيها، وقال رحمه اللّه وأى شئ أحسن من أن يجتمع الناس فيذكرون اللّه عز وجل ويعددون نعمه عليهم كما قالت الأنصار. وروينا عن علىّ كرّم اللّه وجهه مايسُرنى أن اللّه تعالى أماتنى طفلا وأدخلنى الدرجات العُلى من الجنة، قيل ولِمَ ، قال لأنه أحيانى حتى عرفته. وقال مالك بن دينار خرج الناس من الدنياولم يذوقوا أطيَب شئ فيها، قيل وماهو، قال المعرفة، ثم أنشأ يقول :

إن عِرفـان ذى الجـلال لَعزٌ * وضيـاءٌ وبهجة وسرور * وعلـى العارفين أيضا بهاء
وَعليـهـم مـن المحبـة نـور * فهنيا لمن عَرَفك إلهى * هـو والـلـه دهـرُه مـسـرور

وقال يحيى بن معاذ الرازى: فى الدنيا جنه من دخلها لم يشتقْ إلى شئ ولم يستوحش. قيل وماهى، قال معرفة اللّه تعالى. وقال آخر لم يخطئك من العارف إحدى ثلاث خلال تدل عليه، هيبة أو حلاوة أو أنس. وقال عالمنا أبو محمد سهل رحمه اللّه خرج العلماء والزُهّاد والعُبّاد وقلوبهم مُقفلة ولم يُفتح إلا قلوب الصّديقين والشهداء ، ثم تلا وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو، يعنى مقفلة عن مفاتح المعرفة وشهادة عين التوحيد. فمجالس الذكر هذه قديما كانت لأهل المعرفة وأصحاب معاملات القلوب وعلم الباطن، وهم علماء الآخرة وأهل الفقه فى الدين. وقد قال اللّه تعالى وهو أصدق القائلين فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين الآية، فذكر الفقه الذى هو من صفة القلب، والخوف الذى هو سبب الفقه.

وعلم العقل داخل فى علم الظاهر، والعلم باللّه داخل فى اليقين، كما روى فى الخبر اليقين الإيمان كله. وقال اللّه تعالى ومايعقلها إلاّ العالمون. فجعل العقل وصفاً من العلم. وقد أمر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بتعليم اليقين كما أمر بطلب العلم، فكان هذا الحديث مخصوصا من ذاك، فيكون قوله صلى اللّه عليه وسلم تعلّموا اليقين للخصوص لأن اليقين مَقَام فوق العلم، ويكون قوله طلب العلم فريضة للعموم. وفى قوله تعلموا اليقين أمر بمجالسة الموقنين، لأن اليقين لا يظهر بذاته وإنمايوجد عند الموقنين، فقد أمرهم، ولم يقل تعلموا علم المعقول ولاعلم الفتاوى.

وكان علماء الظاهر قديما يسمون المُفتين، ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم استفت قلبك

وإنْ أفتاك المُفتون، فردّه إلى فقه القلب، وصرفه عن فتيا المفتين، فلولا أن القلب فقيه لم يَجُزْ أن يدله صلى اللّه عليه وسلم على غير فقيه، ولولا أن علم الباطن حاكم على علم الظاهر مادفعه من علوم أهل الظاهر وهم علماء الألسنة، إلى علم الباطن وهو علم أهل القلوب، ما ردّه إليه، ولا يجوز أن يرده من فقيه إلى فقيه دونه، كيف وقد جاء هذا الحديث بلفظة مؤكّدة بالتكرير والمبالغة فقال استفت قلبك وإنْ أفتوك وأفتوك، وهذا مخصوص لمن كان له قلب وألقى سمعه وشهد قيام شاهده وعُرّى عن شهواته ومعهوده، لأن الفقه ليس من وصف اللسان. ألم تسمع قوله تعالى لهم قلوب لا يفقهون بها، فمن كان له قلب سميع بسميع، شهيد بشهيد، فقه به الخطاب فاستجاب لما سمع وأناب، وذكر فى قوله تعالى ليتفقهوا فى الدين وصفين ظهرا عن الفقه، أحدهما النذارة، وهو مقام فى الدعوة إلى اللّه عز وجل، ولا يكون النذير إلا مخوّفا، ولا يكون المخوف إلا خائفا، والخائف عالم. والثانى الحذَر، وهو حال من المعرفة باللّه عز وجل والخشية له.

والفقه والفهم إسمان لمعنى واحد، والعرب تقول فقِهت بمعنى فهمت. وقد فضل اللّه تعالى الفهم عنه على العلم والحكمة، ورفع الإفهام على القضاء والأحكام، فقال تعالى ففهّمناها سليمان، فأفرده بالفهم عنه، وهو الذى فضّله به على حكم أبيه فى القضية بعد أن أشركهما فى الحُكم والعلم. وقد فضّل الحسن بن على رضى اللّه عنهما علماء الهداية إلى اللّه سبحانه وتعالي، الداليّن عليه عز وجل، وسمّاهم العلماء، وحققهم بالعلم فى كلام رُوى لنا عنه منظوما، وقد رويناه أيضا عن علىّ كرمّ اللّه وجهه ورضى عنه:

ما الفخر إلا لأهل العلم أنهم * على الهُدى لمن استهدى أدّلاء
ووزن كل أمرىء ما كان يُحسنه * والجاهلون لأهل العلم أعداء

فمن كان عالما يَعلَم، معلومه اللّه سبحانه وتعالى، فَمَنْ أفضلُ منه؟ وأى قيمة تُعرف له إذ كل علم قيمتُه معلومُه، ووزن كل عالم علمه؟ وقد قال عبد الواحد بن زيد إمام الزاهدين كلاماً فى هذا المعني، يُفرد به العلماء باللّه تعالى ويرفع طريقهم فوق كل طريق، أنشدونا عنه رحمه اللّه تعالى:

الطرق شتى وطرق الحق مفردة لا * والسالكون طريقَ الحق أفراد
يُعرفون ولا تُسلك مقاصدُهم * فهم على مهل يمشون قصّاد
والناس فى غفلة عما يُراد بهم * فجلُّهم عن سبيل الحق رقّاد

وروينا عن ابن مسعود رضي اللّه عنه أنه قال لمّا مات عمر رضي اللّه عنه، إني لأحبُ هذا الرجل، قد ذهب بتسعة أعشار العلم، فقيل له تقول هذا وأصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم متوافرون. فقال إني لست أعني العلم الذي تذهبون إليه، إنما أعني العلم باللّه عز وجل. وكان ابن مسعود يقول المتقّون متوارون. وكذلك كان يقول المتقون سادة والعلماء قادة ومجالستهم زيادة، يعني أن المتقين سادة الناس كما قال اللّه عز وجل إنّ أكرمكم عند اللّه أتقاكم، والعلماء قادة المتقين أي أئمتهم يقتفون آثارهم لأنه قال تعالى واجعلْنا للمتقين إماما، ففضّل العلماء على المتقين وجعلهم أئمة لهم، وصار المتقون أصحابهم، وأخبر بالمزيد في مجالستهم أي مجالستهم زيادة على مجالسة المتقين من غير العلماء. لأن كل عالم تقي وليس كل تقي عالما، كما روِي بمعناه العلماء كثير، والحكماء من العلماء قليل، والصالحون كثير، والصادقون من الصالحين قليل.

وسئل ابن المبارك مَن الناس؟ قال العلماء: قيل فمن الملوك؟ قال الزّهاد: فمن السّفلة؟ قال من يأكل بدينه. وقال فرقد السبخي للحسن رحمهما الله تعالى في شئ سأله عنه، فأجابه يا أبا سعيد إن الفقهاء يخالفونك، فقال ثكلتك أمك فُريْقد! وهل رأيت بعينيك فقهاء؟ إنما الفقيه الزاهد في الدنيا، الراغب في الآخرة، البصير بدينه، المداوم على عبادة ربه، الورع، الكاف عن أعراض المسلمين، العفيف عن أموالهم، الناصح لجماعتهم. جَمْعنا قوله هذا في ثلاث روايات عنه مختلفة. فهذه صفات العالم بالله تعالى وهم العارفون.

وحُدّثنا عن عبد الله بن أحمد بن حنبل، قال قلت لأبي بلغنا أنك كنت تختلف إلى معروفٍ، أكان عنده حديث؟ فقال يا بني كان عنده رأس الأمر، تقوى الله عز وجل. وقيل للإمام أحمد رضي الله عنه بأي شئ ذكر هؤلاء الأئمة ووصفوا؟ فقال ما هو إلاّ الصدق الذي كان فيهم. قيل له وما الصدق؟ قال هو الإخلاص. قيل له فالإخلاص ما هو؟ قال الزهد. فأطرق ثم قال سلُوا الزهاد، سلوا بشر بن الحارث.

وقد حُدّثت عن بشر في منصور بن عمّار رحمهما الله حكايات ظريفة. كان منصور بن عمّار من الواعظين المُذكِرين، ولم يكن العلماء في وقته مثل بشر وأحمد وأبي ثور يعدّونه عالما. فقد كان عندهم من القُصّاص. وكانت العامة تسميه عالماً فحُدّثتُ عن نصر بن عليّ الجهضمي أنه مزح ذات يوم مزاحاً أفرط فيه، فقيل له تقول هذا وأنت من العلماء، فقال ما رأيت أحداً من العلماء إلاّ وهو يمزح، فقيل له قد رأيتَ بشر بن الحارث فهل سمعته يمزح، قال نعم كنت جالساً

معه ذات يوم فى بعض الدروب فجاء منصور بن عمّار يعدو، فقال يا أبا نصر الأمير قد أمر بجمع العلماء والصالحين فترى لى أن أختفى، فدفعه بشر وقال تنحّ عنّا لا يمر حمْل شوك فيلقيك علينا فنحترق.

فهذا كان محل القُصّاص عند العلماء فيما سلف حتى ذهب أهل هذا العلم وجُهلت مجالس الذكر وعلوم اليقين والمعاملات، إلاّ من عَرف سيرة المتقدمين وطريقة السالفين الذين كانوا يفرقون بين مجالس الذكر وبين القُصّاص، ويميزون بين العلماء وبين المتكلمين، وبين علم اللسان وفقه القلب، وبين علم اليقين وعلم العقل، لأن الفرق بين العالم والقاص أن العالم يسكت حين يُسئل، فإذا سئل أجاب فيما يعلم بما هيأ الله تعالى له وكشف، وينطق فيما أجراه الله عز وجل عليه وعرف، فإن كان الصمت أفضل آثر السكوت لعلمه الأفضل، فإن لم ير أهلَه تربّص حتى يضعه فى أهله، وأهلُه من عرفه، وكان له نصيب من مشاهدته ووَجْده، وقال الله سبحانه وتعالى فاسئلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون، ففى ذلك معنيان، أحدهما أن أهل الذكر هم العلماء بالله تعالى لقوله إن كنتم لا تعلمون، فلا يجوز أن يقول سلّوا من لا يعلم وهم جاهلون فيزدادوا جهلاً. والمعنى الثانى يدل على أن العلماء سكوت حتى يُسألوا، فإذا سئلوا وجب عليهم أن يجيبوا، لقوله تعالى لمن لا يعلم فاسئلوا، فدلّ أن مجالس الذِكر هى مجالس العُلماء التى وردت الأخبار بفضائلها. وفى تَدبُّره أن أهل الذكر هؤلاء المسئولون هم الذين وصل لهم القول لعلهم يتذكرون، فلما وصل لهم المُفصّل تذكّروا عما وعد تعالى، فلما تذكّروا علموا، فعندها أمر أن يُسألوا، ولذلك روينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينبغى للجاهل أن يستقر على جهله، ولا ينبغى للعالم أن يسكت على علمه، وقد قال الله تعالى فاسئلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون، وهكذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الخبرْ الذى رويناه عن طريق أهل البيت، العلم خزائن مفتاحها السؤال، فاسألوا فإنه يؤجر فيه أربعة، **السائل والعالم والمستمع والمحب لهم.** وكان إبن مسعود رضى الله عنه يقول إن من يُفتى الناس فى كل ما يستفتونه لمجنون. وقال الأعمش مِنْ الكلام كَلامٌ جوابه السكوت. وقال ذو النون المصرى رحمه الله تعالى حُسْن سؤال الصادقين مفتاح قلوب العارفين.

فأمّا **القاصّ** فهو الذى يبتدئ فيقُص الأخبار ويذكر القصص والآثار، ولذلك سُمى قاصاً، أى يتبع قصة مَنْ سلف، ومنه قوله تعالى وقالت لأخته قُصّيه أى تتبعى أثر موسى تعرفى قِصته، وأخبرينى خبره. وقال مالك بن أنس رحمه الله تعالى مِن أذالة العلم أن يُنطق به قبل أن يُسأل عنه، وقال مرة مِن أذالة العلم أن يجيب عن كل ما يُسأل عنه، أى مِنْ إهانته ووضعه، يقال

أشلّ هذا وأذلّ هذا، أى أرْفَعَ، وَوَضَعَ. يقال إذا تكلم بالعلم قبل أن يُسأل عنه ذهب ثلثا نوره، وقد قال إبراهيم بن أدهم وغيره سكوت العالم أشد على الشيطان من كلامه، لأنه يسكت بحِلم وينطق بعِلم، فيقول الشيطان انظروا إلى هذا سكوته أشد علىّ من كلامه، ولذلك يقال الصمت زَيْن العالم وستر الجاهل. وعن القاسم بن محمد أنه قال من إكرام المرء لنفسه أن يسكت على ما عنده حتى يُسأل عنه، ولقوله تعالى فاسئلوا أهل الذكر فأوجب أن يجيبوا من حيث أمَر أنْ يُسألوا. وقال صلى الله عليه وسلم من سُئل عن علم فكتمه أُلجم بلجام من نار، فتوعّد عليه بالعقاب. وقد يكون الابتداء بالشئ من خفايا الشهوات، والشهوات من الدنيا. ووُصف رَجل لمالك بن أنس فقال لا بأس به لولا أنه يتكلم بالشئ قبل أن يُسأل عنه. وقال مرة لا بأس به إلاّ أنه يتكلم بكلام شهر فى يوم. وقد قيل فى معنى ما نُكر أن الكلام من الشهوات، قال هو الذى يَبتدئ به قبل أن يُسأل عنه. ووصف بعضهم الأبدال فقال فى وصفهم أكْلهم فاقة وكلامهم ضرورة. وكانوا لا يتكلمون حتى يُسألوا عن شئ فيجيبوا، ومن لم يتكلم حتى يُسأل فليس يُعَد لاغياً ولا متكلماً فيما لا يعنيه، لأن الجواب بعد السؤال كالفرض بمنزلة ردّ السلام. وكما قال ابن عباس رضى الله عنهما إنى لأرى رد الجواب واجباً كرد السلام، وقد قال أبو موسى وابن مسعود رضى الله عنهما من سُئل عن علم فليقل به، ومن لم يُسئل فليسكت، وإلا كُتب من المتكلفين ومرَق من الدين. ورويناه عن ابن عباس أيضاً.

قد كانوا يخافون من دخول التكلف عليهم فى كل شئ، ويعد بعضُهم بالابتداء بالكلام من غير حاجة تدعو إليه، أو قبل سؤال عنه من غير أن يرى له موضعاً أو يجد له أهلاً، يَعُدّونه من التكلف. وفى وصية ابن عباس لمجاهد لا تتكلم فيما لا يعنيك فإنه أفضل ولا آمن عليك الخطأ، ولا تتكلم فيما يعنيك حتى ترى له موضعاً، فرب متكلم فيما يعنيه قد وضعه فى غير موضعه فَعَنَت. وروى فى حديث الأنصارى الذى قالت له أمه عند موته هنيأً لك الجنة، جاهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقُتلت فى سبيل الله تعالى، فقال رسول الله وقال صلى الله عليه وسلم، وما يُدريك أنه فى الجنة، ولعله كان يتكلم فيما لا يعنيه ويبخل بما لا يُغنيه. ومَنْ أظهر علماً من غير أن يُسأل عنه، ونشَره فى غير أهله، فأُنكر عليه، سُئل عنه وكان عليه فيه مُطَالبة، لأنه قد تكلف إظهاره. فإنْ كان سُئل عنه ثم تكلم فيه لم يكن عليه فيه مطالبة فيمن أنكر لأنه خرج جواباً على سؤال. ومنْ هذا كان السلف المتكلمون فى هذا العلم يسكتون حتى يُسألوا عنه. وكان أبو محمد يقول العالم يقعد فيسكت، ويرفع قلبه إلى مولاه فيفتقر إليه فى حسن توفيقه، ويسأله أن يلْهمه الصواب، فأى شىء سُئل عنه تكلم بما فتح له مولاه، فجعل العالم فى سكوته

ونظره إلى سيده محتاجاً إلى التوكل، ومنتظراً للوكيل فى أى شيء يُجريه.

وقال بعضهم إنما العالم إذا سئل عن المسئلة كأنما تُقْلَع ضرسه. وقال رقبة بن مصقلة وغيره ليس العالم الذى يجمع الناس فيقصُ عليهم إنما العالم إذا سئل عن العلم كأنما يُسعَط الخردل. وقد روينا أنه قاله الأعمش وقد كان محمد بن سوقة يسأله عن الحديث فيعرض عنه ولايجيبه، فالتفت الأعمش إلى رقبة فقال له هو إذاً أحمق مثلك إنْ كان يدَع فائدته لسوء خلقى، فقال محمد بن سوقه ويحك إنما أجعله بمنزلة الدواء أصبر على مرارته لما أرجو من منفعته. وقد روينا عن علىّ وابن مسعود رضى الله عنهما أنه مرّ برجل يتكلم على الناس، فقال هذا يقول إعرفونى. وحدّثنى بعض علماء خراسان عن شيخ له عن أبى حفص النيسابورى الكبير وكان هذا هناك نظير الجنيد ههنا، أنه قال إنما العالم الذى يُسال عن مسئلة فى الدين فيغتمّ حتى لو جُرح لم يخرج منه دم من الفزع، يخاف أن يُسئل فى الآخرة عما سُئل عنه فى الدنيا، ويفزع أن لا يتخلص من السؤال إلا أن يرى أنه قد افتُرض عليه الجواب لفقد العلماء. ومن ههنا كان ابن عمر رضى الله عنهما يسكت عن تسع مسائل ويجيب عن واحدة، ويقول تريدون أن تجعلونا جسرا تعبرون عليه فى جهنم، تقولون أفتانا ابن عمر بهذا. وكان إبراهيم التيمى إذا سئل عن مسئلة يبكى ويقول لم تجد من تسأله غيرى أواحتجتم إليّ؟ قال وجهدنا بإبراهيم النخعى أن نسنده إلى سارية، فأبى، وكان إذا سُئل عن شيء بكي، وقال قد احتاج الناسُ إليّ. وقد كان سفيان بن عُيينة تَفردّ فى زمانه بعلوم انفرد بها فى وقته، وكان مع ذلك يَضرب المثل لنفسه ويقول:

خلَت الديار فَسُدتُ غيرَ مسوّد * ومن الشقاء تَفرُّدى بالسؤدد

وأما أبو العالية الرياحى فكان يتكلم على الاثنين والثلاثة، فإذا صاروا أربعة قام. وكذلك كان إبراهيم والثورى وابن أدهم رحمهم الله تعالى يتكلمون على النفر، فإذا كثُر الناس انصرفوا. وكان أبو محمد سهل رحمه الله يجلس إليه خمسة أو ستة إلى العشرة. وقال بعض الشيوخ كان الجنيد رحمه الله يتكلم على بضع عشرة، قال وما تم أهل الجلسة عشرون. وقد حُدّثت عن أبى الحسن بن سالم شيخنا رحمه الله أن قوما اجتمعوا فى مسجده فأرسلوا إليه بعضهم أنّ إخوانك قد حضروا ويحبون لقاءك والسماع منك، فإن رأيت أن تخرج إليهم فذاك. وكان المسجد على باب بيته ولم يكن يُدخل عليه فى منزله. فقال للرسول بعد أن خرج إليهم مَنْ هم، فقال فلان وفلان وسمّاهم، فقال ليس هؤلاء من أصحابي. هؤلاء أصحاب المجالس ولم يخرج، كأنه

رآهم عموما لا يصلحون لتخصيص علمه فلم يُذهب وقته لوقتهم. وكذلك العالم خلوته تعز عليه، فإن وافق خصوص أصحابٍ آثرهم على خلوته فكان ذلك مزيداً لهم، وإن هو لم يوافق لم يؤثر على خلوته غيره فيكون مناخاً للبطّالين. وقد كان ابن سالم أبو الحسن يخرج إلى إخوانه ممن يراه موضعا لعلمه فيجلس إليهم ويُذاكرهم، وربما أدخلهم إليه نهارا أو ليلا. ولعمرى إن المذاكرة تكون بين النُظراء، والمحادثة تكون مع الإخوان، والجلوس للعلم يكون للأصحاب، والجواب عن السؤال نصيب العموم. وكان عند أهل هذا العلم أن علمهم مخصوص لا يصلح إلا للخصوص، والخصوص قليل. ولم يكونوا ينطقون به إلا عند أهله، ويرون أن ذلك من حقه، وأنه واجب عليهم كما وصفهم علىٌ كرّم الله وجهه فى قوله حتى يُودِعُوه أمثالهم ويزرعوه فى قلوب أشكالهم.

وكذلك جاءت الآثار بذلك عن نبيِّنا صلى الله عليه وسلم وعن عيسى عليه السلام: لا تضيّعوا الحكمة عند غير أهلها فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم. كونوا كالطبيب الرفيق الذى يضع الدواء فى موضع الداء. وفى لفظ آخر من وضع الحكمة فى غير أهلها جَهِلَ، ومن منعها أهلها ظَلَم. إنّ للحكمة حقا، وإن لها أهلا، وإنّ لأهلها حقا، فاعطِ كلّ ذى حق حقه. وفى حديث عيسى صلاة الله وسلامه عليه: لا تعلقوا الجوهر فى أعناق الخنازير، فإن الحكمة خير من الجوهر، ومن كرهها فهو شر من الخنزير. وكان بعض هذه الطائفة يقول نصف هذا العلم سكوت، ونصفه تدرى أين تضعه. وقد قال بعض العارفين من كلّم الناس بمبلغ علمه، وبمقدار عقله، ولم يخاطبهم بقدر حدودهم، فقد بخسهم حقهم، ولم يقم بحق الله عز وجل فيهم. وكان يحيي بن معاذ يقول: إغرف لكل واحد من نهره، واسقه بكأسه. ونحن نقول بمعناه كِلْ لكل عبدٍ بمعيار عقله، وزِنْ له بميزان علمه، حتى تسلم منه وينتفع بك، وإلاّ وقع الإنكار لتفاوت المعيار.

وحدثنى بعض أشياخنا من هذه الطائفة عن أبى عمران وهو المزين الكبير المكّى، قال سمعته يقول لأبى بكر الكتّانى وكان سمحاً بهذا العلم، بذولاً له لجميع الفقراء. فجعل أبو عمران يعاتبه وينهاه عن بذله له وكثرة كلامه فيه، إلى أن قال، أنا منذ عشرين سنة أسأل الله تعالى أن يُنسينى هذا العلم، قال ولِمَ، قال رأيتُ النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام فسمعته يقول إن لكل شىء عند الله تعالى حُرمة، ومن أعظم الأشياء حرمة الحكمة، فمَن وضعها فى غير أهلها طالبه الله تعالى بحقها، ومن طالبه خَصَمَه.

وقد كان بعض السلف يقول إذا استند الرجل إلى سارية، أو أحب أن يُسأل فلا تجلس

إليه، ولا ينبغى أن يُسأل. ولم يُر فى مجالس أهل هذا العلم فيما سلف ثلاثون رجلا ولا عشرون إلا نادراً، غير لزام ولا دوام، إنما كانوا من الأربعة إلى العشرة وبضعة عشر، وقد كان يجتمع فى مجالس القُصّاص والمُذكِرين والواعظين مئون من عهد الحسن إلى وقتنا هذا. فهذا أيضا من الفرق بينهما – أنّ العلم مخصوص لقليل، وأنّ القصص عام لكثير. وقال بعض علمائنا كان فى البصرة مائة وعشرون متكلما فى الذِكر والوعظ، ولم يكن من يتكلم فى علم المعرفة واليقين والمقامات والأحوال إلاّ ستة، منهم أبو محمد سهل والصبيحى وعبد الرحيم.

وقد قيل من لم ينتفع بسكوت العالم ينتفع بكلامه، أى ينبغى أن يتأدب بصمته وخشوعه وورعه، ويقتدى بيقينه فى ذلك، كما يتأدب بنطقه ويقتدى بكلامه. علَىَ أنهم كانوا يقولون علم الظاهر من علم الملك، وعلم الباطن من علم الملكوت، يعنون أن ذلك من علم الدنيا لأنه يُحتاج إليه فى أمور الدنيا، وهذا من علم الآخرة لأنه من زادها، وهذا كما قالوه لأن اللسان ظاهر فهو من الملك، وهو خزانة العلم الظاهر، والقلب خزانة الملكوت وهو باب العلم الباطن، فقد صار فضل الباطن على الظاهر كفضل الملكوت على الملك، وهو الملك الباطن الخفي، وكفضل القلب على اللسان وهو الظاهر الجلى.

وقد كان بشر بن الحارث رحمه الله يقول «حدّثنا وأخبرنا» باب من أبواب الدنيا. وقال مرة الحديث ليس من زاد الآخرة. وحدّثنا بعض أشياخنا عن بعض أصحابه قال دفنا له بضعة عشر، ما بين قمطر وقوصرة، كتبًا لم يُحدّث منها بشىء إلاّ ماسُمع منه نادرا فى الفرد. وكان رحمه الله تعالى يقول إنى أشتهى أن أُحدّث، ولو ذهب عنى شهوة الحديث لحدّثت، ثم قال أنا أجاهد نفسى منذ أربعين سنة. وقال إذا سمعت الرجل يقول «حدّثنا وأخبرنا» فإنما يقول أوسعوا لي. وكان زاهداً عالما، وقال هو وغيره إذا اشتهيتَ أن تحدّث فلا تُحدّث، وإذا لم تشتهِ أن تحدّث فحدّث. وقد كانت رابعة العدوية رحمها الله تعالى قبله تقول للثورى رضى الله عنه نِعْمَ الرجل سفيان لولا أنه يُحب الحديث. وكانت تقول فتنة الحديث أشد من فتنة المال والولد، وقالت مرة لولا أنه يحب الدنيا، يعنى اجتماع الناس حوله للحديث. وكان أبو سليمان الدارانى رحمه الله تعالى يقول من تزوج أو كتب الحديث أو طلب معاشاً فقد ركَنَ إلى الدنيا. وقال بعض هذه الطائفة كل من أدرك العلوم غير العلم بالله عز وجل فقد استدرك، والذى أدرك العلم بالله فقد تدورك، ثم تلا قوله تعالى لولا أن تداركه نعمة من ربه لنُبذ بالعراء، أى تدورك بعلم المعرفة لطُرح

فى بُعد الهوى، والعرا البُعد. وعلم المعقول بُعدُ إلى جنب علم اليقين. وقال أيضاً فى فهم قوله تعالى ولولا أنْ ثبتناك لقد كدت تركن إليهم، أى ثبتّناك بالمعرفة، لقد كدت تسكن إلي علوم العقل. وقال سهل بن عبد الله رحمه الله تعالى فى قوله عز وجل واجعل لى من لدّنك سلطانا نصيرا، قال لسانا ينطق عنك لا عن سواك.

وفضل العلم بالله عز وجل، والعلم بالإيمان، وعلم اليقين على العلم بالأحكام والقضايا، كفضل المشاهدة على الخبر. وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم ليس الخبر كالمعاينة، وفى لفظ آخر ليس المُخبر كالمُعاين. وقد روى عياض بن غنم عن النبى صلى الله عليه وسلم فى تفسير قوله عز وجل ألهاكم التكاثر، علم اليقين كرأى العين. وفى هذا الخبر أن من خيار أمتى قوما يضحكون جهراً من سعة رحمة ربهم. ويبكون سراً من خوف عذابه، أقدامُهم فى الأرض، وقلوبُهم فى السماء، وأرواحهم فى الدنيا، وعقولهم فى الآخرة، يمشون بالسكينة، ويتقربون بالوسيلة. فالفتياهى الإخبار، والاستفتاء هو الاستخبار، ومنه قوله تعالى فاستفتهم، وقوله تعالى ويستفتونك إى يستخبرونك، فعلم الخبر قد يدخله الظن والشك، والمشاهدة ترفع الظن وتزيل الشك، كما قال تعالى ما كذب الفؤاد ما رأى، فأثبت الرؤية للقلب بالعين، فرؤية القلب هو اليقين، وذو القلب هو الموقن، وقال النبى صلى الله عليه وسلم كفى باليقين غنى، ففى علم اليقين غُنية عن جميع العلوم، لأنه حقيقة العلم وخالصه، وليس فى جميع العلوم غنى عن علم اليقين، ولأن الفقر بالشك، والحاجة إلى اليقين فى علم التوحيد وعلم الإيمان أشد من الفقر بالحاجة إلى علوم الفُتيا وغيرها، فلذلك صار الغنى باليقين أعظم من الاستغناء بسائر العلوم، ففى هذا العلم مَثَل من فاتحة الكتاب إلى سائر القرآن، كما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم فاتحة الكتاب تجزى من كل القرآن وليس القرآن كله يجزى من فاتحة الكتاب، فكذلك مَثَل العلم بالله عز وجل إلى العلم بما سواه، ففى العلم بالله تعالى عِوَض من كل العلوم، وليس فى سائر العلوم عوض من الله عز وجل، من حيث كان فى الله تعالى عِوَض به عن كل ما سواه. وكل علم موقوف على معلومه، فعلم اليقين معلومه الله تعالى، ففضله كفضل الله تعالى على ما سواه، وقد قال بعض الحكماء فى معنى ما ذكرناه من عَرف الله تعالى فماذا جهل؟ ومن جهل الله تعالى فماذا عرف؟ فالعلماء بالله تعالى هم ورثة الأنبياء لأنهم ورثوا عنهم الدلالة على الله تعالى

والدعوة إليه، والاقتداء بهم فى أعمال القلوب. وقد قال الله تعالى ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً، وكما قال تعالى ادع إلى سبيل ربك بالحكمة، وكما أمر بالدعاء وأشرك معه أتباعه فى الدعاء إلى الله تعالى، لا فى البصيرة، فقال تعالى قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن أتبعني، ويُحشَرون يوم القيامة مع الأنبياء، كما قال تعالى أولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين، وكما قال تعالى وجئ بالنبيين والشهداء، ثم فسره فقال بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء، وقد روينا معناه عن معاذ بن جبل، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن أقرب الناس من درجة النبوّة أهل العلم وأهل الجهاد، أمّا أهل العلم فدلّوا الناس على ما جاءت به الأنبياء، وأمّا أهل الجهاد فجاهدوا بأسيافهم على ما جاءت به الرسل. وعلماء الدنيا يُحشرون مع الولاة والسلاطين، وقد قال بعض السلف العلماء يُحشرون فى زمرة الأنبياء، والقضاة يحشرون فى زمرة السلاطين.

وكان إسمعيل بن إسحق القاضى من علماء أهل الدنيا ومن سادة القضاة وعقلائهم، وكان مؤاخياً لأبى الحسن بن أبى الورد، وكان هذا من أهل المعرفة، فلما ولى إسمعيل القضاء هجره ابن أبى الورد، ثم إنه اضطر إلى أن دخل عليه فى شهادة، فضرب ابن أبى الورد يده على كتف إسمعيل القاضى، وقال يا إسمعيل علمٌ أجلَسَكَ هذا المجلس، لقد كان الجهل خيراً منه. فوضع إسمعيل رداءه على وجهه وجعل يبكى حتى بلّه.

وعلماء الظاهر هم زينة الأرض والمُلك. وعلماء الباطن زينة السموات والملكوت، وعلماء الظاهر أهل الخبر واللسان، وعلماء الباطن أرباب القلوب والعيان. وقال بعض العلماء لمّا خلق الله تعالى اللسان قال هذا مَعْقِل خَبَرِىَ إن صدَقَنى نجيّتُه، ولمّا خلق الله تعالى القلب قال هذا موضع نظرى إن صفا لى صافيته. وقال بعض الخلف الجاهل ينجو بالعلم، والعالم ينجو بالحُجة، والعارف ينجو بالجاه. وقال بعض العارفين علم الظاهر حكم، وعلم الباطن حاكم، والحكم موقوف حتى يجئ الحاكم يحكم فيه. وقد كان علماء الظاهر إذا أُشكل عليهم العلم فى مسئلة لاختلاف الأدلة سألوا أهل العلم بالله، لأنهم أقرب إلى التوفيق عندهم، وأبعد من الهوى والمعصية، منهم الشافعى رحمه الله تعالى، كان إذا اشتبهت عليه المسئلة لاختلاف أقوال العلماء فيها وتكافؤ الاستدلال عليها، رجع إلى علماء أهل المعرفة فسألهم، قال وكان يجلس بين يدىّ

شيبْان الراعى كما يجلس الصبى بين يدىّ المكتب، ويسأله كيف يفعل فى كذا وكيف يصنع فى كذا، فيقال له مثلك يا أبا عبد الله فى علمك وفقهك تسأل هذا البدوى، فيقول إن هذا وُفّق لما علمناه. وكان الشافعى رحمه الله قد أعتل علّة شديدة، وكان يقول اللّهم إنْ كان فى هذا رضاك فزدنى منه، فكتب إليه المعافرى من سوّاد مصر يا أبا عبد الله لستُ وإياك من رجال البلاء فنسأل الرضا، الأوْلى بنا أن نسأل الرفق والعافية، فرجع الشافعى رحمه الله عن قوله هذا وقال استغفر الله تعالى وأتوب إليه، فكان بعد ذلك رحمه الله يقول اللّهم اجعل خيرتى فيما أحب.

وقد كان أحمد بن حنبل ويحيى بن معين رضى الله عنهما يختلفان إلى معروف بن فيروز الكرخى رحمهم اللّه، ولم يكن يُحسن من العلم والسُنن ما يُحسنانه، فكانا يسألانه. وقد روى فى الخبر قيل يا رسول الله، كيف نصنع إذا جاءنا أمر لم نجده فى كتاب الله تعالى، ولا فى سنّة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال سَلوا الصالحين واجعلوه شورى بينهم، ولا تقضوا فيه أمراً دونهم. وفى حديث معاذ رضى الله عنه فإن جاءك ما ليس فى كتاب الله تعالى ولا سنّة رسول الله، قال أقضى فيه بما قضى الصالحون، فقال الحمد لله الذى وفّقّ رسول رسوله، وفى بعضها أجتهد رأيىّ.

وحدّثونا عن الجنيد قال كنتُ إذا قمت من عند سرىّ السقطىّ قال لى إذا فارقتنى مَنْ تجالس، فقلت الحارث المحاسبى، فقال نعم خذ من علمه وأدبه ودع عنك تشقيقه للكلام وردّه على المتكلمين. قال فلما ولّيتُ سمعته يقول جعلك الله صاحب حديث صوفياً، ولا جعلك صوفياً صاحب حديث، يعنى أنك إذا ابتدأت بعلم الحديث والأثر ومعرفة الأصول والسُنن، ثم تزهّدت وتعبّدت، تقدّمت فى علم الصوفية وكنت صوفياً عارفاً، وإذا ابتدأت بالتعبد والتقوى والحال شُغلتَ به عن العلم والسُنن، فخرجتَ إما شاطحاً أو غالطاً لجهلك بالأصول والسُنن، فأحسنُ أحوالك أن ترجع إلى العلم الظاهر وكُتُب الحديث، لأنه هو الأصل الذى تُفَرّع عليه العبادة والعلم، وأنت قد بدئت بالفرع قبل الأصل. وقد قيل إنما حُرِمُوا الوصول، بتضييع الأصول، هو كُتُب الحديث ومعرفة الآثار والسُنن، فإذا أنت رُددْتَ إلى الأصل فقد انحططت عن مرتبة الناقدين، ونزلت من درجة العارفين، وفاتك مزيد اليقين والإيمان.

وقال سفيان الثورى رضى الله عنه كان الناس إذا طلبوا العلم عملوا، فإذا عملوا أخلصوا، فإذا أخلصوا هربوا. وقال آخر العالم إذا هرَب من الناس فاطلبه، وإذا طلب الناس فاهرب منه. وقال أبو محمد سهل العلم يهتف بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل. وقال ذو النون يقول إجلس إلى من تكلمك صفتُه، ولا تجلس إلى من يُكلمك لسانه. وقد كان الحسن قبله يقول جالس من تكلمك أعماله، ولا تجالس من يخاطبك مقاله. وقد كان طائفة يصحبون كثيراً من أهل المعرفة للتأدبّ بهم والنظر إلى هديهم وأخلاقهم إن لم يكونوا علماء، لأن التأديب يكون بالأفعال والتعلم يكون بالمقال. ومن أبلغ ما سمعت منهم فى هذا المعنى ما قال بعض الحكماء وَعْظُ واحدٍ لألفٍ بفعل، أنجح فيهم وأوقع من وَعْظِ ألف لواحد بقوْل. وكان سهل يقول العلم كله دنيا، والآخرة منه العمل به، والعمل هباء إلا الإخلاص. وقال مرة الناس موتى إلا العلماء، والعلماء سُكارى إلا العاملين، والعاملون مغرورون إلا المخلصين، والمخلص على وَجَل حتى يُختم له به.

ولم يكن العالم عند العلماء مَنْ كان عالماً بعلم غيره، ولا حافظاً لفقه سواه، هذا كان اسمه راوية وواعياً وحاملاً وناقلاً. وقد كان أبو حازم الزاهد يقول ذهب العلماء وبقيت علومٌ فى أوعية سود. وقد كان الزهرى يقول كان فلان وعاءً للعلم، وحدّثنى فلان وكان من أوعية العلم، ولا يقول كان عالماً. وكذلك جاء الخبر رُبَّ حامل فقه غير فقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه. وكانوا يقولون حمّاد الراوية، يعنون أنه كان راويا، ودخول الهاء فى الاسم للمبالغة فى الوصف كما يقال علاّمة ونسّابة. وإنما كان العالم عندهم الغنى بعلمه لا بعلم غيره، وكان الفقيه فيهم هو الفقيه بفقه علمه وقلبه لا بحديث سواه. كما جاء فى الأثر أىُّ الناس أغنى، قال العالم الغنى بعلمه، إن أُحتيج إليه نفع وإلاّ اكتفى عن الناس بعلمه، لأن كل عالم بعلم غيره فإنما صار عالماً بمجموعه، فمجموعه هم العلماء، وكل فاضل بوصف سواه فموصوفه هم الفضلاء، فإذا تركهم وانفرد سكت فلم يرجع إلى علمٍ لنفسه يُختص به، فصار فى الحقيقة موصوفاً بالجهل، واصفاً لطرائق أهل الفضل، موسوماً بعلم السمع والنقل، فمثّل العالم بعلم غيره مَثل الواصف لأحوال الصالحين، العارف بمقامات الصدّيقين، ولا حال له ولا مقام، فليس يعود عليه من وصفه إلا الحجة بالعلم والكلام، وسَبَقَ العارفون بالله فى الحجة بالأعمال والمقام، فمثّله كما قال الله تعالى ولكم الويل مما تصفون، وكقوله عز وجل كلما أضاء لهم مشوْا فيه، وإذا أظلَم عليهم قاموا، لا

يرجع إلى بصيرة فيه بما اشتبَه من ظُلمات الشُبه عليه مما اختلف العلماء فيه، ولا يتحقق بوجد منه فيه يجده عن حالٍ ألبسها بوجده، وإنما هو متواجد بوجد غيره، فغيره هو الواجد، وشاهد على شهادة سواه، فالسوى هو الشاهد، وقد كان الحسن يقول إن الله تبارك وتعالى لا يعبأ بصاحب رواية، إنما يعبأ بذى فهم ودراية. وقال أيضاً منْ لم يكن له عقل يسوسه، لم تنفعه كثرة مروياته للحديث، وقد أنشدنا لبعض الحكماء فى معنى ذلك :

العلم علمان فمصنوع ومطبوع * ولا ينفع مجموع إذا لم يك مصنوع
كما لا تنفع الشمس * وضوء العين ممنوع

وكان الجنيد رحمه الله يُنشد :

علم التصوف علم ليس يعرفه * إلاّ أخو فطنةٍ بالحق معروف
وليس يعرفه من ليس يشهده * وكيف يشهد ضوءَ الشمس مكفوف

لأن الكتب والمجموعات محدثة، والقول بمقالات الناس، والفتيا بمذهب الواحد من الناس، وانتحاء قوله، والحكاية له فى كل شئ، والتفقه على مذهب محدث، لم يكن الناس قديما على ذلك فى القرن الأول والثانى.

وهذه المصنفات من الكتب حادثة بعد سنة عشرين ومائة من التاريخ، وبعد وفاة كل الصحابة وعِلْيَة التابعين، ويقال إن أول كتاب صُنّف فى الإسلام كتاب ابن جريج فى الآثار، وحروف من التفاسير من مجاهد وعطاء وأصحاب ابن عباس بمكة، ثم كتاب معمر بن راشد الصنعانى باليمن، جمع فيه سُنناً منثورة مُبوّبة، ثم كتاب المُوطّأ بالمدينة لمالك بن أنس رضى الله عنه فى الفقه، ثم جمع ابن عُيينه كتاب الجوامع فى السُنن والأبواب، وكتاب التفسير فى أحرف من علم القرآن، وجامع سفيان الثورى الكبير رضى الله عنه فى الفقه والأحاديث، فهذه مِنْ أول ما صُنّف ووضع من الكتب بعد وفاة سعيد بن المسيب وخيار التابعين، وبعد سنة عشرين أو أكثر ومائة من التاريخ، فكان العلماء الذين هم أئمة هؤلاء العلماء من طبقات الصحابة الأربعة ومن بعد موت

الطبقة الأولى من خيار التابعين، هم الذين انقرضوا قبل تصنيف الكتب، وكانوا يكرهون كتب الحديث وَوضْع الناس الكتب لئلا يُشتغل بها عن القرآن وعن الذكر والفكر، وقالوا احفظوا كما حفظنا، ولئلا يشتغل الناس عن الله تعالى برسم ولا وسم. كما كره أبو بكر الصديق رضى الله عنه وعِلْيَة الصحابة تصحيف القرآن فى مصحف، وقالوا كيف نفعل شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم، وخشوا اشتغال الناس بالمصحف واتكالهم على المصاحف، فقالوا نترك القرآن يتلقاه الناس بعضُهم من بعض تَلَقُّنًا بالتلقين والإقراء، ليكون هو شغلهم وهمتهم وذكرهم، حتى أشار عليه عمر رضى الله عنه وبقية الصحابة أن يجمع القرآن فى المصاحف، لأنه أحفظ له وليرجع الناس إلى المصحف، لِماَ لا يُؤْمَن من الاشتغال بأسباب الدنيا عنه، فشرح الله تعالى صدر أبى بكر رضى الله عنه لذلك، فجمع القرآن فى الصُحف المتفرقة فى المصحف الواحد. وكذلك كانوا يتلقون العلم بعضهم عن بعض ويحفظونه حفظاً، هذا لطهارة القلوب من الرِيَب، وفراغها من أسباب الدنيا، وصفائها من الهوى، وعلوّ الهمة وقوّة العزيمة، وحُسن النية. ثم ظهرت بعد سنة مائتين، وبعد تقضّى ثلاثة قرون، فى القرن الرابع المرفوض، مصنفات الكلام وكتب المتكلمين بالرأى والمعقول والقِيَاس، وذهب علم اليقين، وغابت معرفة الموقنين من علم التقوى وإلهام الرشد واليقين، فَخَلَف من بعدهم خَلْفٌ فلم نَزَل فى الخلوف إلى هذا الوقت، ثم اختلط الأمر بعد هذا التفصيل فى زماننا هذا فصار المتكلمون يُدعَوْن علماء، والقُصّاص يُسَمَّوْن عارفين، والرواة والنقلة يُقال علماء من غير فقه فى دين ولا بصيرة فى يقين.

ورويناً عن ابن أبى عبلة قال كنا نجلس إلى عطاء الخراسانى بعد الصبح فيتكلم علينا، فاحتبس ذات غداة. فتكلم رجل من المؤذنين لا بأس به بمثل ما كان يتكلم به عطاء، فأنكر صوته رجاء بن أبى حيوة، فقال من هذا المتكلم، فقال أنا فلان، فقال اسكت فإنه يُكره أن يُسمع العلم إلاّ من أهله. وكذلك كانوا يقولون أبَى أهل العلم بالله تعالى أن يسمعوا هذا العلم إلاّ من أهله الزاهدين فى الدنيا، وكرهوا أن يسمعوه من أبناء الدنيا، وزعموا أنه لا يليق بهم.

واعلم أن العبد إذا كان يذكر الله تعالى بالمعرفة وعلم اليقين لم يسعه تقليد أحد من العلماء، وكذلك كان المتقدمون إذا افتتحوا هذا المقام خالفوا من حملوا عنه العلم لمزيد من اليقين والإفهام. وقال ابن عباس رضى الله عنهما ليس أحد إلاّ يؤخذ من قوله ويُترك، إلاّ رسول الله

صلى الله عليه وسلم. وقد كان تعلم من زيد بن ثابت الفقه، وقرأ على أبىّ بن كعب، ثم خالف زيداً فى الفقه وأبياً فى القراءة. وقال بعض الفقهاء من السلف ما جاءنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلناه على الرأس والعين، وما جاءنا عن الصحابة فنأخذ به ونترك، وما جاءنا عن التابعين فهم رجال ونحن رجال. قالوا ونقول ولأجل ذلك كان الفقهاء يكرهون التقليد، ويقولون لا ينبغى للرجل أن يُفتى حتى يعرف اختلاف الفقهاء، أى فيختار منها على علمه الأحوط للدين والأقوى باليقين، فلو كانوا يستحبون أن يُفتى العالم بمذهب غيره لم يُحتج أن يعرف الاختلاف، ولكان إذا عرف مذهب صاحبه كفاه، ومن ثم قيل إن العبد يُسأل غداً فيقال ماذا عملت فيما علمت، ولا يقال له فيما علم غيرك، وقد قال الله تعالى - وقال الذين أوتوا العلم والإيمان - ففرّق بينهما، يدل به أن من أوتى إيمانا ويقينا أوتى علماً، كما أن من أوتى علماً نافعاً أوتى إيمانا، وهذا أحد الوجوه فى قوله سبحانه كَتَب فى قلوبهم الإيمان وأيّدهم بروح منه، أى قواهم بعلم الإيمان، فعلم الإيمان هو روحه، وتكون الهاء عائدة إلى الإيمان. وكذا العالم الذى هو من أهل الاستنباط والاستدلال من الكتاب والسنة، فإنه أداة الصنعة وآلة الصُنع، لأنه ذو تمييز وبصيرة، ومن أهل التدبر والعبرة. فأمّا الجاهل والعامى الغافل فله أن يقلد العلماء، ولعالمِ عمومٍ أيضاً أن يقلّد عالمَ خصوص، وللعالم بالعلم الظاهر. أن يقلّد مَنْ فوقه ممن جُعل على علمٍ باطن من أهل القلوب، لأن النبى صلى الله عليه وسلم ردّ من علم الألسنة والفتيا إلى علم القلوب، ولم يَرُدّ أهل القلوب فى علمهم الذين يختصون به إلى المفتين، لأنهم يأخذون من المفتين فُتياهم ثم يجدون فى قلوبهم حيْكاً وحزازة، فيلزمهم فتيا القلب، لقوله استفت قلبك بعد قوله وإن أفتاك المفتون، مع قوله الإثم حزاز القلوب، إلى قوله ما حاك فى صدرك فَدَعْهُ وإن أفتوك وأفتوك. ثم دَرَسَ معرفة هذا فَجُهِل، فصار كل من نطق بكلام وصنعة غَرُبَ على السامعين، لا يُعرف حقه من باطله، سمى عالماً. وكل كلام مستحسن زُخْرِف رونقه لا أصل له يُسمى عالماً لجهل العامة بالعلم أى شئ هو، ولقلة معرفة السامع بوصف من سلف من العلماء كيف كانوا، فصار كثير من متكلمى الزمان فتنة المفتون، وصار كثير من الكلام والرأى والمعقول الذى حقيقته جهل كأنه علم عند الجاهلين، فلا يفرّقون بين المتكلمين والعلماء ولا يميزون بين العلم والكلام.

وقد قلنا إن خصوص الجهال يُشبّهون بالعلماء فيشتبهون على مجالسيهم فى الحال، فاعلم

الناس فى زمانك هذا أعرفهم بسيرة المتقدمين وأعلمهم بطرائق السالفين، ثم أعلمهم بالعلم أى شئ هو، وبالعالم من هو من المتعلم والمتعالم، وهذا كالفرض على طالبى العلم أن يعرفوه، لأنه لمّا قال صلى الله عليه وسلم طلب العلم فريضة وجب عليهم أن يعرفوا أى شئ هو العلم حتى يطلبوه، إذ لا يصح طلب ما لا يُعرف، ثم وَجَبَ عليهم من هذا أن يعرفوا العالِم من هو ليطلبوا عنده العلم إذ العلم عَرَض، ولا يقوم إلا بجسم فلا يوجد إلا عند أهله، كما قيل لعلّى كرّم الله وجهه، وقيل له إنك خالفت فلانا فى كذا، فقال خيرنا أتبعنا لهذا الدين، وكما قيل لسعد أن ابن المسيب يقرأ ما ننسخ من آية أو ننسأها، فقال إن القرآن لم ينزل على ابن المسيب ولا على أبيه، ثم قرأ أو ننسها. فأعلم الناس فى هذا الوقت وأقربهم من التوفيق والرشد أتبعهم لمن سلف وأشبههم بشمائل صالحى الخلف. كيف وقد روينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سئل من أعلم الناس، فقال أعرفهم بالحق إذا اشتبهت الأمور. وقال بعض السلف أعلم الناس أعرفهم باختلاف الناس.

وكان **الحسن البصرى** رضى الله عنه يقول مُحْدِثان أحدثا فى الإسلام، رجل نو رأى سوء زعم أن الجنه لمن رأى مِثْلَ رأيه، ومترف يعبد الدنيا، لها يغضب، ولها يرضى، وإياها يطلب، فارفضوهما إلى النار. وإنّ رجلا أصبح فى هذه الدنيا بين مترف يدعو إلى دنياه وصاحب هوى يدعو إلى هواه، قد عصمه الله تعالى منهما، يجئ إلى السلف الصالح يسأل عن فعالهم ويقتص آثارهم لتعرّض لأجر عظيم، فكذلك فكونوا. وكما روينا عن ابن مسعود رضى الله عنه وقد جاء مسندا، إنما هما اثنان، الكلام والهدى، فأحسن الكلام كلام الله تعالى، وأحسن الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم. ألا وإياكم ومحدثات الأمور، فإن شرّ الأمور محدثاتها. إنّ كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة. ألا لا يطوّلن عليكم الأمد فتقسو قلوبكم. ألا كل ما هو آت قريب. ألا إن البعيد ما ليس بآت. وفى خُطبة النبى صلى الله عليه وسلم التى رويناها عن أبّان عن أنس، طوبى لمن شغله عيبُه عن عيوب الناس، وأنفق من مال اكتسبه من غير معصية، وخالط أهل الفقه والحكمة، وجانب أهل الذمة والمعصية. طوبى لمن ذلّ فى نفسه، وحسُنت خليقته، وصلُحت سريرته، وعَزَل عن الناس شره. طوبى لمن عمل بعلمه، وأنفق الفضل من ماله، وأمسك الفضل من قوله، ووسعته السُّنّة ولم يَعْدُها إلى بدعة. وقال بعض الأدباء كلاماً منظوماً فى وصف زماننا هذا كأنه شاهده:

ذهب الرجال المُقتدَى بفعالهم * والمنكِرون لكل أمر منكَر

وبقيتُ فى خَلَف يُزكّى بعضهم * بعضاً ليدفع مِعْوَرٌ عن معور

أبُنَىّ إنّ من الرجال بهيمةً * فى صورة الرجل السميعِ المُبصرِ

فَطِناً بكل مُصيبة فى ماله * فإذا أصيب بدينه لم يَشْعُرِ

فسل الفقيه تكن فقيهاً مثلَه * من يسع فى أمر بفقه يظفرِ

وقد كان ابن مسعود رضى الله عنه يقول حُسن الهدى فى آخر الزمان خير من كثير من العمل. وقال فى وصف زمانه باليقين وفى وصف زماننا بالشك، فقال إنكم فى زمانٍ خيركم فيه المسارع فى الأمور، وسيأتى بعدكم زمان يكون خيرهم فيه المتثبّت المتوّقف، يعنى لكثرة الشبهات. وقال حُذيفة رضى الله عنه أعجب من هذا، قال إن معروفكم هذا منكر زمان قد مضى، وإن منكركم معروف زمان قد يأتى، وإنكم لن تزالوا بخير ما عرفتم الحق، وكان العالم فيكم غير مستخف. وكان يقول أيضا يأتى فى آخر الزمان قوم يكون العالِم فيهم بمنزلة الحمار الميت لا يلتفتون إليه، يستخفى المؤمن فيهم كما يستخفى المنافق فينا اليوم. المؤمن فيهم أذل من الأمَة. وفى حديث علىّ كرّم الله وجهه يأتى على الناس زمانٌ ينكر الحقَ تسعةُ أعشارهم، لا ينجو منهم يومئذ إلاّ كل مؤمن نُوَمَة، يعنى صموتا متغافلا، أولئك مصابيح العلم وأئمة الهدى وليسوا بالمذاييع البُذُر، يعنى المتكلمين كثيراً المتظاهرين بالكلام افتخارا. وفى خبر يأتى على الناس زمان من عرَف فيه الحق نجا، قيل فأين العمل، قال لا عمل يومئذ لا ينجو فيه إلاّ من هرب بدينه من شاهق إلى شاهق. وفى حديث أبى هريرة رضى الله عنه يأتى على الناس زمانٌ من عمل منهم بعُشر ما أمُر به نجا. وفى بعضها بعُشر ما يَعلم. وعن بعض الصحابة أنتم اليوم فى زمان من ترك منكم عُشر ما يعلم هلك، ويأتى عليكم زمان من عمل فيه بعُشر ما يعلم نجا. وقال بعض الخلفاء يأتى عليكم زمان يكون أفضل العلم الصمت، وأفضل العمل النوم، يعنى لكثرة المنافقين بالشبهات، فصار الصمت للجاهل علما، ولكثرة العاملين بالشهوات فصار النوم عبادة البطّال. ولعمرى إن الصمت والنوم أدنى أحوال العالِم وهما أعلى أحوال الجاهل.

وكان يونس بن عبيد يقول أصبح اليوم من يعرف السنّة غريبا وأغرب منه من يعرفه، يعنى طريقة السلف، يقول فمن يعرفه عرف طريق من مضى، وهو غريب أيضا لأنه قد عرف غريبا.

وقال حذيفة المرعشى كَتَب إلىّ يوسف بن أسباط ذهَبَتْ الطاعة ومن يعرفها. وكان أيضا يقول ما بقى من يُؤنَس به. وقال ما ظنك بزمانٍ مُذاكرة العلم فيه معصية، قيل ولِمَ ذلك، قال لأنه لا يجد أهله. وقد كان أبو الدرداء رضى الله عنه يقول إنكم لن تزالوا بخير ما أحببتم خياركم وقيل فيكم الحق فعُرِف. ويل لكم إذا كان العالِم فيكم كالشاة النطيح. وقد كان للمتقدمين علوم يجتمعون عليها ويتفاوضونها بينهم قد دَرَست فى زماننا. وكان للصالحين معان وطرائق يسلكونها ويسألون عنها قد ذهبت فى وقتنا. وكان لليقين والمعرفة مقامات وأحوال يتذاكرها أهلها ويطلبون أربابها قد عفَت آثارها عندنا لقلة الطالبين لها، ولعدم الراغبين فيها، وفَقْدِ العلماء بها، وذهابِ السالكين فى طُرقها، منها طلب الحلال وعلم الورع فى المكاسب والمعاملات، وعلم الإخلاص، وعلم آفات النفوس وفساد الأعمال، وعلم نفاق العلم والعمل، والفرق بين نفاق العلم والعمل، والفرق بين نفاق القلب ونفاق النفس، وبين إظهار النفس شهوتها وإخفائها ذلك، والفرق بين سكون القلب بالله وسكون النفس بالأسباب، والفرق بين خواطر الروح والنفس، وبين خاطر الإيمان واليقين والعقل، وعلم خلائق الأحوال وأحوال طرائق العمّال، وتفاوت مشاهدات العارفين وتلوينات الشواهد على المريدين، وعلم القبض والبسط، والتحقيق بصفات العبودية والتخلق بأخلاق الربوبية، وتباين مقامات العلماء، إلى غير ذلك مما لا نذكره من علم التوحيد ومعرفة معانى الصفات، وعلوم المكاشفة بتجلى الذات، وإظهار الأفعال الدالّة على معانى الصفات الباطنة، وظهور المعانى الدّالة على النظر والأعراض والتقريب والأبعاد، والنقص والمزيد، والمثوبة والعقوبة، والاختباء والاختيار، وقد ذكرنا من جميع هذه المعانى فصولاً، ورسمنا جملا وأصولا، تنبه على فروعها، وتدل على أشكالها، لمن وُفق لتدبرها، وأُريد بتذكرها، وجُعل له نصيب منها.

وقال بعض علمائنا أعرف للمتقدمين سبعين علما كانوا يتحاورونها ويتعارفونها فى هذا العلم، لم يبق منها اليوم علم واحد يُعرف. قال وأعرف فى زماننا هذا علوما كثيرة من الأباطيل والدعاوَى والغرور وقد ظهرت وسمّيت علوما، لم تكن فيما مضى تُعرف، فهذا كالشراب الذى وصفه الله تعالى فقال يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيأ. وكان الجنيد رحمه الله تعالى من قبله يقول عِلْمُنا هذا الذى نتكلم فيه قد طُوِى بِساطُه منذ عشرين سنة، وإنما نتكلم فى حواشيه. وكان يقول أيضا قد كنت أجالس قوما سنين يتحاورون فى علوم لا أفهمها ولا أدرى ما هى، وما بُليت بالإنكار قط. كنت أتقبلها وأحبها من غير أن أعرفها. وكان أيضا يقول

كنا نتجارى مع إخواننا قديما فى علوم كثيرة ما تُعرف فى وقتنا هذا، ولا سألنى عنها أحد. وهذا باب قد أغلق ورُدِم.

ولما صنف شيخنا أبو سعيد بن الأعرابى كتاب طبقات النُّسَّاك وصف أوّل من تكلم فى هذا العلم وأظهره، ثم من بعده من البصريين والشاميين وأهل خراسان إلى أن كان آخرهم البغداديين، وقال آخر من تكلم فى هذا العلم صاحبنا جنيد القواريرى، وكانت له بصيرة فيه وحقيقة وحُسن عبارة، وما بقى بعده إلاّ مَن مجالسُـته غيظ. وقال مرة أخرى ما بقى بعد جنيد إلاّ من يستحي من نكره. وقد كان إمامنا أبو محمد سهل رحمه الله يقول بعد سنة ثلثمائة لا يحل أن يتكلم بعلمنا هذا، لأنه يحدث قوم يتصنعون للخَلْق، ويتزينون بالكلام، لتكون مواجيدهم لباسهم، وحليتهم كلامهم، ومعبودهم بطونهم. وقد كان حنيفة رضى الله عنه إذا سُئل أى الفتن أشد، فقال إنْ يُعرض عليك الخير والشر فلا تدرى أيهما تأخذ لكثرة الشبهات. كما كان سهل يقول بعد سنة ثلثمائة لا يصح لأحد توبة لأنه يفسَد خبزُهم وهم لا يصبرون عن الخبز، يعنى إن أوّل التوبة أكل الحلال. وقد روينا فى خبر يأتى على الناس زمان يضلون فيه دينهم فلا يعرفونه، يُصبح الرجل على دينٍ ويُمسى على دين، يَضل أمره على غير يقين، وتُسلب عقول أكثر أهل ذلك الزمان، وأوّل ما يُرفع عنهم الخشوع، ثم الإجابة ثم الورع، ويقال أوّل ما يُرفع من الناس الألفة.

ذكر ما أحدث الناس من القول والفعل فيما بينهم مما لم يكن عليه السلف

كان الناس قديما إذا التقوا يقول أحدهم لصاحبه ما خبرُك وما حالك، يعنون بذلك ما خبر نفسك فى مجاهدتها وصبرها، وما حال قلبك من مزيد الإيمان وعلم اليقين، ويريدون أيضا ما خبرك فى المعاملة لمولاك، وما حالك فى أمور الدنيا والآخرة، هل ازددت أم انتقصت، فيتذاكرون أحوال قلوبهم، ويصفون أعمال علومهم، ويذكرون ما وهب الله تعالى لهم من حسن المعاملة، وما فتح لهم من غرائب الفهوم، فكان هذا من تعديد نِعَم الله تعالى عليهم ومن جميل شكرهم، ويكون مزيداً لهم فى المعرفة والمعاملة. وقد كان بعضهم يقول أكثر علومنا ومواجيدنا ما يعرفه بعضنا من بعض، وما يخبر به أحدنا أخاه إذا التقينا، فقد جُهِل هذا اليوم فتُرِك، فهم إذا تساءلوا عن الخبر والحال إنما يريدون به أمور الدنيا وأسباب الهوى، ثم يشكو كل واحد مولاه الجليل سبحانه وتعالى إلى عبده الذليل، ويتسخّط أحكامه، ويتبرم بقضائه، وينسى نفسه وما قدمت

يداه، فمثله كما قال تعالى ومن أظلم ممن ذُكِّر بآيات ربه فأعرض عنها ونسى ما قدّمت يداه، وكما قال تعالى إن الإنسان لربه لكنود، قيل كفور بنعمته يعدد المصائب وينسى النعم. كل ذلك جهالةً بالله تعالى وغفلةً عنه.

ومنه قولهم الآن كيف أصبحت وكيف أمسيت، هذا مُحدَث، إنما كانوا إذا التقوا قالوا السلام عليكم ورحمة الله. وفى الخبر من بدأكم بالكلام قبل السلام فلا تجيبوه، وإنما حَدَث هذا فى زمان الطاعون الذى كان يُدعى طاعون عمواس بالشام، من الموت الذريع. كان الرجل يلقى أخاه غُدْوَةً فيقول كيف أصبحت من الطاعون، ويلقاه عشية فيقول كيف أمسيت منه، لأن أحدهم كان إذا أصبح لم يمس، واذا أمسى لم يصبح، فبقى هذا إلى اليوم ونُسى سببه، وكان من عرف حدوثه من المتقدمين يكرهه. حدثونا عن أحمد بن أبى الحوارى قال، قال رجل لأبى بكر بن عياش كيف أصبحت أوكيف أمسيت فلم يكلمه، وقال دعونا من هذه البدعة. قال وقلت لبعض السلف كيف أصبحت فأعرض عنى، وقال ما كيف أصبحت، قل بالسلام. وروى أبو معشر عن الحسن رضى الله عنه إنما كانوا يقولون السلام عليكم سَلِمتْ والله القلوب، فأما اليوم كيف أصبحت أصلحك الله، كيف أمسيت عافاك الله، فإن أخذنا بقولهم كانت بدعة.

ومن ذلك ابتداء الرجل فى عنوان الكتاب باسم المكتوب إليه، وإنما السنّة أن يبتدى بنفسه فيكتب من فلان إلى فلان. قال ابن سيرين رحمه الله تعالى غبتُ غيبة فكتب إلى أبى فابتدأت باسمه، فكَتَب إلىّ يابنى إذا كتبتَ إلىّ فابدأ باسمك فى الكتاب، فإن ابتدأت باسمى قبل اسمك لا قرأتُ لك كتابا ولا رددتُ إليك جوابا. وكتب العلاء بن الحضرمى رضى الله عنه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فبدأ بنفسه، وكتب من العلاء بن الحضرمى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. ويقال أول من أحدثه زياد فعابه العلماء عليه وعدّوه من إحداث بنى أمية. وقد بقى سنّة هذا فى كتب الخلفاء والأمراء إلى اليوم على نحو ما مضى، فهم يقدمون أسماءهم فى كتبهم.

ومن الإحداث قول الرجل إذا جاء منزل أخيه ياغلام، ياجارية، فيه مخالفة لأمر الله عز وجل، وأمر رسوله عليه السلام. قال الله عز وجل لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلّموا على أهلها. قال أهل التفسير الاستئناس الدق أو التنحنح أو الحركة حتى يؤذن بذلك أن وراءها إنسانا. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا جاء أحدكم منزل أخيه فليسلم ثلاثا، فإنْ أُذن له فليدخل وإلاّ فليرجع. وكان السلف يقرع أحدهم باب أخيه ثم يسلّم ثلاثا،

يقف بعد كل تسليمة هنيهة، فإنْ أُذِن له دخل . وقد لايحب صاحب المنزل أن تدخل عليه في ذلك الوقت لسببٍ عُذرَ له، فيقول وعليكم السلام ورحمة الله، ارجعْ عافاك الله فإني على شُغل، فيرجع عنه غير كاره لرجوعه، ولا يؤثر ذلك عليه في نفسه. وقد يكون قوله ارجعْ أحب إليه لأنه أفضل له رجاءَ الإجابة والتزكية، لقوله تعالى وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم، فربما رجع في اليوم مرتين أو ثلاثا بعد رد صاحبه له، وهو يعود لأن ذلك لم يؤثر في قلبه شيأ. وهذا لو فُعِل ببعض الناس من أهل عصرنا هذا لَكَرِهَه، ولعل أن لايعود يومه ذلك، فأمّا العلماء فقد كان بعض الناس لايستأذن عليهم إلاّ لِمُهِمٍّ لابد منه، بل كانوا يقعدون على أبوابهم وفي مساجدهم ينتظرون خروجهم لأوقات الصلاة إجلالا للعلم وهيبةً للعلماء. وحدثونا عن أبي عبيد قال ماقرعتُ على عالم قط بابه. كنت أجئ إلى منزله فأقعد على بابه انتظر خروجه من قِبَل نفسه، أتأوّل قول الله عز وجل ولوأنهم صبروا حتى تخرُجَ إليهم لكان خيراً لهم. وقد روينا مثلَ هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما في موضعه من العلم والشرف، أنّ المارّ كان يمرُّ به وهو قائم على باب منزل الرجل من الأنصار تَسْفي عليها الرياح، فيقول مايُجلسك ههنا ياابن عم رسول الله، فيقول أنتظر خروج صاحب المنزل، فيخرج الرجل، فيقول، ابن عم رسول الله لو أرسلتَ إليّ لجئتك، فيقول لا، أنا كنت أحق أن آتيك، فيسأله عما يريد من حديث بلَغَهُ أنه يرويه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن هو سمعه منه.

ومن ذلك استقصاء الرجل في المسئلة عن حال أخيه وخبره وقد كُرِه ذلك. تزوّج سلمان الفارسي رضي الله عنه فلما دخل على أهله خرج إلى الناس من الغد، فقال له رجل كيف أنت يا أبا عبد الله، قال بخير أحمد الله تعالى، قال كيف حالك، كيف بتّ البارحة، وفي لفظ آخر كيف وجدت أهلك، فغضب سلمان وقال لِمَ يسأل أحدكم فيُخفي المسئلة وليسأل عما وراء البيوت، يكفي أحدكم أن يسأل عن ظاهر الأمر. وأما سليمان بن مهران الأعمش فإن رجلا قال له في منزله، كيف أنت يا أبا محمد، قال بخير، قال كيف حالك، قال في عافية، قال كيف بتّ البارحة، فصاح ياجارية إنزلي بالفراش والمخاد فنزلت بذلك، فقال افرشي واضطجعي حتى اضطجع إلى جنبك لنُرِي أخانا كيف بتُّ البارحة. وكان يقول يلقى أحدهم أخاه فيسأله عن كل شئ حتى عن الدجاج في البيت، ولو سأله درهما ما أعطاه. وكان من مضى من السلف إذا لقي أخاه لايزيد على قوله كيف أنتم، أو حيّاكم الله بالسلام، ولو سأله شَطْرَ ماله قاسَمَه.

ومن ذلك قول الرجل لأخيه إذا لقيه ذاهبا فى طريق إلى أين تريد، أو من أين جئت، فقد كُرِهَ هذا وليس من السنّة ولا الأدب، وهو داخل فى التجسس والتحسس، لأن التحسس فى الآثار والتجسس فى الأخبار، وهذا السؤال عن ذلك يجمعهما، وقد لايحب الرجل أن يعلم صاحبه أين يذهب ولا من أين جاء، وقد كَرِه ذلك مُجاهد وعطاء، قالا إذا لقيت أخاك فى طريق فلا تسأله من أين جئت ولا أين يذهب، فلعله أن يُصدقك فتكرَه ذلك، ولعله أن يَكْذِبك فتكون قد حملته عليه.

وقد كانوا يكرهون بيع المصاحف وشراءها، وكان بعضهم لبيعها أكره منه لشرائها. وقد ابتدع الناس علوما لم تكن تعرف فيما سلف، ومنها علم الكلام، والجدل، وعلوم المقاييس والنظر والاستدلال على سُنَن الرسول الله صلى الله عليه وسلم بأدلة الرأى والمعقول. ومنها إيثار علم العقل والرأى والقياس على ظواهر القرآن وعلى الأخبار. ومنها إظهار الإشارات بالمواجيد من غير علومها ولابيان تفصيلها، وفى ذلك تحيير للسامعين وإضلال للعاملين، وإنما كان العلماء بهذا العلم يُظهرون علوم المواجيد ويُخفون الإشارة بالوَجْد، فيظهرون للناس ماينفع ويخفون مايضر، ولأن المواجيد أحوال قلوبهم فَكَتْمُها أفضل، وعلومها أنصبة المريدين والعاملين، فإظهارها هو البُغية لهم، فأظهروه وأخفوا وجْدَهم لأنه سرّ لهم، فَسَلِموا من التَّصَنّـع والدعوى، وأعطوا السامعين نصيبهم ومنعوهم ماليس لهم، فعدلوا فى الوصفين معا فَفَضَلوا فى الحالين جميعاً، فجُهِلَ هذا الآن فأُظهر ضده، وكان إلى الضرر أقرب ومن السلامة أبعد، فمن لم يُحسن التفصيل، ولم يُرْزَق العبارة، فإنه يَحسُن الصمت فهو واسع إنْ من لم يتكلم بعلم على سنّة، فسكوته أقرب له إلى الله تعالى، فمِثله فى ذلك كما قال الله عز وجل ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لايكلف الله نفسا إلا ما آتاها.

ومما ظهر إظهار علوم المعرفة بمعانى الرغبة ليتميزوا عن الفقراء تَكَبُّراً منهم فلا يُجعلون مجعلهم، فليُصرف إليهم من الأسباب على قدر أُنسهم وأحوالهم، وهذا من أكبر أبواب الدنيا وأضره على مريدى الآخرة وألطفه تمويها فى الدين.

ومنها الكلام فى التوحيد بمخالفة علم الشرع، وأن الحقيقة تخالف العلم، والحقيقة هى علم، وهى أحد طرقات الشريعة، وعلم الشرع عنها، فكيف تنافيها وهى التى أوجبته، وإنما هى عزيمة وضيِقَة، وعلم الظاهر هو الرُخصة والسِعة، فمن تكلم فى علم الباطن على غير قواعد

العلم الظاهر وأصوله فذلك من الإلحاد في الشريعة، والوليجة بين الكتاب والسنة. وقد قال بعض العارفين نظرت إلى هؤلاء الشاطحين فما وجدت إلا جاهلاً مغرورا، أو خاسئا حَبُورًا، أو مستظهرا بلا شيء.

ومنها الكلام فى الدين بالوساوس والخطَرَات عن غير رَدّ مواجيدها إلى الكتاب والسّنة، والواجب معرفة تفصيلها، ونفى مالم يشهد له الكتاب والسُّنة منها، اذ فى المواجيد ضلال وغرور، وفى المشاهدات باطل وزور، مع دعواهم المحبة وإنكارهم الصفة التى جاءت بها السّنة وعن غير شهادة موصوف، وادعائهم المعرفة من غير تَعَرُّف معروف.

ومما أحدثوا السجع فى الدعاء والتغريب فيه، ولم يرد الكتاب به ولانُقِلَ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا الصحابة، بل كانوا ينهون عن الاعتداء فى الدعاء ويجتنبون مجاوزة ما أخبر الله تعالى عن أوليائه من الأدعية الجامعة المختصرة المعروفة. وروينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إياكم والسجع فى الدعاء، حَسْبُ أحدكم أن يقول اللهّم إنى أسألك الجنة وماقرّب إليها من قول وعمل، وأعوذ بك من النار وماقرّب إليها من قول وعمل. وفى الخبر سيأتى قوم يعتدون فى الدعاء والطهُور. وسمع عبد اللّه بن مغفل ابنه يدعو بدعاء يفَمّق فيه، فقال يا بنى إياك والحدَث والاعتداء فى الدعاء. وفى قوله عز وجل ادعوا ربكم تضرعًا وخفية إنه لا يحب المعتدين، قيل فى الدعاء فالاعتداء فى الدعاء هو ترك ماأخبر الله عز وجل عن أوليائه الصالحين من الدعاء بالمغفرة والرحمة والتوبة، ومعنى ذلك من الدعاء المعروف والقول المشهور إلى التنطع والتعميق والتغريب والتدقيق. ويقال إن العلماء والأبدال لايزيد أحدهم على سبع كلمات فى الدعاء، ووجدتُ تَصْدِيق ذلك فى الكتاب أن اللّه تعالى ماأخبر عن عباده فى الدعاء فى مكان واحد أكثر من سبع دعوات، وهى التى فى آخر سورة البقرة، وإلاّ إنما يُخبر عنهم بالدعوتين والثلاث والأربع إلى الخمس فى مواضع من الكتاب متفرقة، ومرّ بعض السلف بقاصّ يدعو، ويسجع فى دعائه ويتعمق، فقال له ويلك على اللّه تبالغ! أشهدُ لقد رأيت حبيباً العجمى يدعو ومايزيد على قوله اللهّم اجعلنا جيّدين، اللهم لاتفضحنا يوم القيامة، اللهم وفقنا للخير، قال والناس يبكون من كل ناحية، وكنا نتعرف إجابة دعائه وبركته. وكان أبو يزيد البسطامى يقول سَلْه بلسانِ الحكمة. وقال الحسن ادعُ بلسان الاستكانة والافتقار لا بالفصاحة والانطلاق.

ومما أحدثوه أخذَ القرآن بالإدارة وتنازع الاثنين الآية، أو تلَقِي الرجلين للآيتين في مكان واحد بمنزله الاختلاس والنَهْبَة، من غير خشُوع للقرآن ولاهية، وقراءة القرآن تحتاج إلى حزن وسكون وخشوع، ومن ذلك أخذ المُقْرِيء على الاثنين، وليته قام بقراءة الواحد لسهو القلب، كما قيل لإبراهيم الحربي إن فلانا يأخذ على الاثنين، فقال هاه يحتاج اثنان أن يأخذا على واحد.

ومن البدع التلحين في القراءة حتى لاتُفهم التلاوة، وحتى يجاوز إعراب الكلمة بمدّ المقصور وقصر الممدود، وإدغام المُظْهَر وإظهار المُدْغَم، ليستوى بذلك التلاحن، ولايبالي باعوجاج الكَلِم وإحالته عن حقيقته، فهو بدعة ومكروه استماعه. قال بشر بن الحارث سألت ابن داود الحربي أمُرّ بالرجل يقرأ فأجلسُ إليه، قال - يقول يُطرِب، قلت نعم، قال لا. هذا قد أظهر بدعته.

ومن ذلك التلحين في الأذان وهو من البَغْيِ والاعتداء فيه. قال رجل من المؤذنين لابن عمر رضى الله عنهما إني لأحبك في الله تعالى، فقال له لكني أبغضُك في الله تعالى. قال يا أبا عبد الرحمن لِمَ؟ قال لأنك تبغي في أذانك وتأخذ عليه أجرا. وكان أبو بكر الآجرى رحمه الله يقول خرجت من بغداد وما يحل لي المقام بها، قد ابتدعوا في كل شيء حتى في القرآن وفي الأذان. وكان يعني بذلك قراءة الإدارة والتلحين، وقدم علينا مكة في سنة ثلاثين.

ومن جُمَل ماأحدَث الخلَف فخالطوا به سُنن السلف، أنهم شددّوا في أشياء كان السلف يُسَهّلون فيها، وسَهّلوا أشياء كان السلف يشددّون فيها، فمثلهم في ذلك كالخوارج شددّوا في الصغائر من الذنوب، وسَهّلوا في الآثار والسنّة وفي ترك مذهب الجماعة حتى فارقوهم. فمما شدّد فيه الخلف مما كان السلف يسَهّلونه كُتُب الأحاديث من أنواع طُرُقِها، وتَتَبُع الغرائب من طرقاتها، وتحرى الألفاظ فيها، وقد قال ابن عون أدركت ثلاثة يرخّصون في المعاني، إبراهيم والشعبي والحسن رحمهم الله تعالى، وعن جماعة من علماء السلف والصحابة التَوْسِعَة في معاني الأحاديث وإن لم يؤد ألفاظها، ومن ذلك تجريد الحروف وتحرى المَقرِى الواحد في جميع اختياره حتى كأنه فَرْضٌ عليه.

ومن ذلك التدقيق في القياس والنظر والتبحّر في النحو والعربية، كما قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى أعْرَبنَا في الكلام فلم نَلحن، ولحنّا في الأعمال فيا ليتنا لحنّا في الكلام وأعربنا في الأعمال. وذُكِرت العربية عند القاسم بن المخيمرة فقال أوّلها كبر وآخرها بغى. وقد قال بعض السلف النحو يُذهب الخشوع من القلب. وقال آخر من أحب أن يزدرى الناس كلّهم

فليتعلم العربية.

وشددوا فى الطهارة بالماء وتنظيف الثياب وكثرة غسلها من عرق الجنب ولبس الحائض، ومن أرواث مايؤكل لحمه وأبواله، وغسل اليسير من الدم ونحو ذلك، وكان السلف يرخصون فى هذا كله. ومما سهلوه مما كان السلف يشددون فيه أمر المكاسب وترك التحرى فيها، والكلام فيما لايعنى والخوض فى الباطل، والغيبة والنميمة والاستماع إليها، والعقد على البلاغات، وسوء الظن لأجلها وهو اشتراك فى الغيبة والنميمة. وكل بلاغة تزيد وتنقص إن كان شرا ازددتَ فيه، وإن كان خيراً نَقَصْتَ منه.

وسهلوا فى النظر إلى الزور واللهو ومجالسة البطّالين، والمشى فى أسباب الهوى، والتعصب، وشدة الحرص على الدنيا، وهذا كله كان السلف يشددون فيه. ومما أحدثوا دخول النساء الحمّام من غير ضرورة، ودخول الرجل بغير مئزر وهو فِسْق. وسئل إبراهيم الحربى رحمه الله تعالى عمن يشرب النبيذ ولايسكر أيُصلَى خلفه، قال نعم، قيل فمن دخل الحمّام بغير مئزر، فقال لايُصلى خلفه، هذا لأن شُرب النبيذ يُختلف فيه إذا لم يُسكِر، ودخول الحمام بغير مئزر مُحرَّم بإجماع. وكان بعض العلماء يقول يحتاج داخل الحمام إلى مئزرين، مئزر لوجهه ومئزر لعورته، وإلاّ لم يَسلَم فى دخوله. وكان ابن عمر يقول الحمّام من النعيم الذى أحدثوه، ومن المنكر فى الحمام تولّى القَيّم لعورة الرجل المسلم فى الإطلاءبالنُّوْرَة.

وقد كان من هدى العلماء فى قعودهم أن يجتمع أحدهم فى جلسته فينصب ركبتيه، ومنهم من يقعد على قدميه ويضع مرفقيه على ركبتيه. كذلك كان شمائل كل من تكلم فى هذا العلم خاصة من عهد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن زمن الحسن البصرى وهو أوّل من أظهر هذا العلم وفتّق الألسن به، إلى وقت أبى القاسم الجنيد قبل أن تظهر الكراسى. وكذلك رُوى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يقعد القُرْفصاء ويحتبى بيديه. وفى رواية أخرى أنه كان يقعد على قدميه ويجعل مرفقيه على ركبتيه. وأوّل من قعد على كرسى من أهل هذا العلم يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى بمصر. وتبعه أبو حمزة ببغداد، فعاب الأشياخ عليهما ذلك، ولم يكن ذلك من سيرة العارفين الذين يتكلمون فى علم المعرفة واليقين، إنما كان يجلس مُتَرَبِعا النحويون واللغويون وأبناء الدنيا من العلماء المُفتين، وهى جلسة المتكبرين، ومن التواضع الاجتماع فى الجلسة.

ذكر تفصيل العلوم معروفها وقديمها ومحدثها ومنكرها

إعلم أن العلوم تسعة، أربعة منها سنّة معروفة من الصحابة والتابعين، وخمسة محدثة لم تكن تُعرف فيما سلف، فأما الأربعة المعروفة: فعلم الإيمان، وعلم القرآن، وعلم السنن والآثار، وعلم الفتاوى والأحكام، وأما الخمسة المحدَثة: فالنحو، والعروض، وعلم المقاييس والجدل فى الفقه، وعلم المعقول بالنظر، وعلم علل الحديث وتطريق الطرقات فيه وتعليل الضعفاء وتضعيف النَقَلة للآثار، فهذا العلم من المحدث إلا أنه علم لأهله فيسمعه أصحابه منهم. وقد كانوا يرون القصص بدعة وينهون عنه ويكرهون مجالسة القُصّاص. وقال بعض العلماء نِعْم الرجل فلان لولا أنه يَقُصّ. وقال بعض هذه الطائفة مَثَل أصحاب الحكايات فى أهل المعرفة مَثَل القُصّاص فى الفقهاء، وقال آخر مثل القُصّاص فى العلماء مَثَل أهل السواد فى أهل المدن. فأمّا أكل الدنيا بالدين وأخذها على الصلاح، وبيع العلم بالدنيا والتصنّع والتزّين للعموم، فمن قبيح ما أُحدث، وهو أظهر من أن يُدّل على فساده عند من عرف ظاهر العلم، وقد سُمى هؤلاء الجاهلون بالعلم فى زماننا هذا علماء، وجعلهم الناقصون عن الفضل فُضلاء، لقلة معرفتهم بطريق المتقدمين، وعدم بصيرتهم بحقيقة علم الدين.

واعلم أن الكلام ينقسم عندنا سبعة أقسام، العلم منه قسم واحد وسائر الستة لغو مُطّرَح، يلتقطه من لايعرفه ولايفرق بين العلم والجهل. والعرب تقول لكل ساقطة لاقطة، ولكل قائلة ناقلة، فالستة إفْك وسَفَه، وخطأ وظن، وزخرف ووسوسة، فهذه أسماؤها عند العلماء يفصّلون ذلك بما فصّل الله تعالى لهم من بيانه واستحفظهم من كتابه وجعلهم شهداء على دينه وعباده، فالقسم السابع من الكلام هو ما عدا هذه الستة ولم يقع عليه اسم منها مذموم، فهو علم وهو نص القرآن والسنة، أو ما دلاّ عليه واستُنبط منهما أو وجد فيهما اسمه ومعناه من قول وفعل. والتأويل إذا لم يخرج عن الإجماع داخل فى العلم. والاستنباط إذا كان مستودعا فى الكتاب يشهد له المجمل ولا ينافيه النص فهو علم. وقد كان ابن مسعود رضى الله عنه يقول أنتم اليوم فى زمانٍ الهوى فيه تابع للعلم، وسيأتى عليكم زمان يكون العلم فيه تابعا للهوى. وقد جمع الله تعالى بين رونق العقل ومُتعة الدنيا بتسمية الزخرف فقال تعالى ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون وزخرفاً، وكما قال زخرفاً من القول غرورا، فذهاب الجاهل بالاستحسان لزخرف القول من المُمَوّه من غَلّ الدنيا، كمتعة الجاهل من أبناء الدنيا بزخرف الذهب ذاهبا عن حقيقة الأمر.

والزخرف ما يُموه على الذهب فيشبَه به، يحسبه الجاهل والصبى عين الذهب، كذلك الزخرف من القول ما يمُوه ويشبّه على العلم، يحسبه المستمع من الجهّال علما، فكذلك جمع بينهما فى التسمية الزخرف. وقد قيل إن الزخرف هو الذهب فعلَى هذا شبَّه قول الغرور بالذهب الذى يذهب بقائه وتقل حقيقته عند الربانيين وأهل الحقيقة الزاهدين، إذ شبّهه الأنبياء والصدّيقون كالحجر والمدر.

وكان الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه يقول تركوا العلم وأقبلوا على الغرس، ما أقل العلم فيهم والله المستعان. وقال الإمام مالك بن أنس رضى الله عنه لم يكن الناس فيما مضى يسألون عن هذه الأمور كما يسأل الناس اليوم، ولم يكن العلماء يقولون حرام ولا حلال فى أكثر الأمور، وأدركتُهم يقولون مُستَحب ومكروه. وكان مالك كثير التوقف فى الأجوبة إذا سُئل ويكْثِر أن يقول لا أدرى، سَلْ غيرى. وقال رجل لعبد الرحمن مهدى ألاَ ترىَ إلى قول فلان فى العلم حلال وحرام وقَطعِه فى الأمور بعلمِه، يعنى رجلا من أهل الرأى، وإلى قوْل مالك إذا سُئل أحسبُ أحسب، فقال عبد الرحمن ويلك، قول مالك «أحسب أحسب» أحبّ إلىّ من قول فلان أشهد أشهد. وكان هشام بن عروة يقول لا تسألوهم اليوم عما أحدثوا فإنهم قد أعدّوا له جوابا، ولكن اسألوهم عن السنَن فإنهم لا يعرفونها. وكان الشعبى رحمه الله تعالى إذا نظر إلى ما أحدث الناس من الرأى والهوى يقول لقد كان القعود فى هذا المسجد أحبّ إلىّ مما يعدِل به، فمنذ صار فيه هؤلاء المُراؤن فقد بَغّضوا إلىّ الجلوس فيه، ولأنْ أقعد على مزبلة أحبّ إلىّ من أن أجلس فيه. وكان يقول ما حدّثوك عن السنن والآثار فخذْ به، وما حدثوك عما أحدثوا من رأيهم فامخُط عليه، وقد قال مرة فبُلْ عليه. وقد كان السلف يستحبون العَىّ والبلّه عن علوم المعقول، وقد جعله رسول الله صلى الله عليه وسلم من الإيمان إذ قرَنه بالحياء، فقال الحياء والعَى شعبتان من الإيمان، والبذاء والبيان شعبتان من النفاق. وقال عليه السلام أبغض الخلق إلى الله عز وجل البليغ الذى يتخلل الكلام بلسانه كما يتخلل الباقر الخَلا بلسانها، يعنى الحشيش الرطب. وقال فى حديث آخر العَىّ عَىّ اللسان لاعَىّ القلب. وقال إن الله عز وجل كَرِهَ لكم البيان كل البيان فصار الفقه إنما هو فقه القلب عن الرب سبحانه وتعالى، وصار فقه اللسان بالبيان إنما هو عَىّ القلب عن الشهادة والإيقان. وعى اللسان وطول الصمت الذى كان يستحبه السلف هو اليوم عيب. ومن المتكلمين من لا يُعرف من كلام البدع، وعلم المنافقين الذى ذمّه القدماء هو اليوم سنّة، وأهل النطق به هم العلماء اليوم. ولقد صار المعروف منكراً والمنكر

معروفا، وصارت السُنَّة بِدعة، والبدعة سنة، وكذلك جاءت به الأخبار في وصف علماء آخر الزمان.

وفي الخبر المشهور أن الله تعالى يبغَض الثَّرثارين المتشدِّقين، فمن غلب عليه هذا الوصف فكان متشدِّقا بليغا في علم الرأى والمعقول عَيِىَّ القلب عن مشاهدة اليقين وعلم الإيمان كان إلى النفاق أقرب ومن حقيقة الإيمان أبعد. وقد كان أبو سليمان الداراني يقول لا ينبغي لمن أُلهم شيأ من الخيرات أن يعلمه حتى يسمع به في الأثر فيحمد الله تعالى إذا وافق ما في نفسه. وقال بعض العارفين ما تبلت خاطرا من قلبي حتى يقيم لى شاهدىّ عدل من كتاب وسنّة. وكان إمامنا أبو محمد سهل رحمة الله تعالى يقول لا يبلغ العبد حقيقة الإيمان حتى يكون فيه هذه الأربع – أداء الفرائض بالسنة، وأكل الحلال بالورع، واجتناب النّهى من الظاهر والباطن، والصبر على ذلك حتى الممات. وقد كانوا يعيبون على من تكلّم بعد طلوع الفجر إلى طلوع الشمس بغير ذكر الله تعالى، وكانوا يخرجون المتحدثين من المساجد فلا يبقى فيها إلا مُصلّ أو ذاكر لله تعالى. وقد كان السلف يستعظمون يسير الحديث في الدين ودقائق البدع في الإسلام لعظم الإيمان والسنّة في قلوبهم ولمعرفتهم بحقيقة المعروف. قال عبد الله بن مغفل لابنه وقد سمعه يقرأ خلف الإمام يا بنى إياك والحدَث، إياك والحدث. وقال سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه لابنه عمر وقد سمعه يسجع في كلامه – هذا الذى يبغضَك إلىّ، لا قضيتَ حاجتك أبدا. وكان قد جاءه يسأله حاجة له. وقال عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أوتى إمرؤ شراً من طلاقة في لسانه. وقال صلى الله عليه وسلم لابن رواحة حين سجع سمِعَه فوالَى بين ثلاث وقال – إياك والسجع يا ابن رواحة. فكان السجع ما زاد على كلمتين. وكذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للرجل الذى أمره بديّة الجنين لما قال كيف ندَى من لا شَرِب ولا أكَلَ ولا صاح ولا استَهل فمثل هذا بطل، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أسجع كسجع الأعرابَ.

ورويّنا عن مروان لما أحدث المنبر في صلاة العيد عند المُصلى قام إليه أبو سعيد الخدرى فقال يا مروان ما هذه البدعة، فقال إنها ليست بدعة، هى خير مما تعلم. إن الناس قد كثروا فأردت أن يَبلغهم الصوت. قال أبو سعيد رضى الله عنه ولا تأتون بخير مما أعلم أبدا، والله لا صلّيتُ وراءك اليوم. فانصرف ولم يصلِ معه صلاة العيد. فالخطبة على منبر في صلاة العيد

وخطبة الاستسقاء بدعة، وكان عليه السلام يخطب فيهما على الأرض متوكئا على قوس أو عصا.

وروى أن عمر رضى الله عنه أخّر صلاة المغرب ليلة حتى طلع نجم فأعتق رقبة، وفعله عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه أيضا فأعتق رقبة استنانا بعمر وهو جده لأمه. وروينا عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه أخّر صلاة المغرب حتى طلع كوكبان فأعتق رقبتين. وفى الخبر لاتزال أمتى على مُسْكة من دينها ما لم يؤخروا صلاة المغرب إلى اشتباك النجوم تشبهاً باليهودية، ولم يؤخروا صلاة الصبح إلى افتراق النجوم تشبهاً بالنصرانية. وقال سفيان الثورى رحمه الله ويوسف بن أسباط لا تقلد دينك من لا دين له. وقال وكيع لأنْ أزنى أحبّ إلىّ من أن أسأل مبتدعا عن دينى.

وكان **الإمام أحمد بن حنبل** رحمه الله تعالى قد أكثر عن عبيد الله بن موسى العيسى ثم بلغه عنه أدنى بدعة، قيل أنه كان يقدّم عليا على عثمان وقيل بل ذكر معاوية بسوء، فانصرف أحمد ومزّق جميع ما حمل عنه ولم يحدّث عنه شيئاً. وقيل له مرة يا أبا عبد الله أوَكيع أشبه بالسلف أمْ عبيد الله، فقال وكيع وإن زَنَى. وحدثونا عن إبراهيم الحربى قال كتبت عن علىّ بن المدينى رضى الله عنه جُملا لله تعالى على أن لا أحدّث عنه بحرف، قيل ولِمَ يا أبا اسحق، فذكر صلاته خلف مبتدع. وكان رحمه الله تعالى يقول صحبت الفقهاء وأصحاب الحديث وأهل العربية واللغة سبعين سنة ما سمعت هذه المسائل التى أُحدثت فى هذا الوقت من أحد منهم قط، يعنى الاسم والمسمى ونحو ذلك. وقال وأخرجُ على من كان من أهل الكلام والجدل أن يحضر مجلسى أو يسألنى عن شيء فإنه لا علم لى بالكلام، ولا أنا أُحسنه، ولا أقول بأهله، ولو عرفت أحدا منهم ما كلّمته ولا أجبته عن شيء. وهجر الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى أبا ثور صاحب الشافعى لما سُئل عن معنى قول النبى صلى الله عليه وسلم إن الله تعالى خلق آدم على صورته، قال إن الهاء عائدة على آدم، فغضب وقال ويله، وأى صورة كانت لآدم يخلقه عليها، ويله. يقول إن الله تعالى خلق على مثال، فأى شيء يَعمل فى الحديث المفسّر إن الله تعالى خلق آدم على صورة الرحمن، فبلغ ذلك أبا ثور فجاءه واعتذر وحلف أنه ما قلتُ عن اعتقاد وإنما هو رأى رأيته، والقول ما قلت وهو مذهبى. وهجر أيضا حارثا المحاسبى رحمه الله تعالى فى رده على المبتدعة وكان من أهل السُنّة، فقال أين ترد عليهم وقد حكيت قولهم،

وأيضا فإنك تحملهم على التفكر والرأى فيما قلت فيكون سببا لرد الحق بالباطل. وهجر أيضا يحيى بن معين فى كلمة تكلم بها وهو قوله لو أعطانى الشيطان شيئاً أخذته.

وقال مالك بن أنس رضى الله عنه ليس من السنة أن تجادل عن السنة ولكن تخبر بها، فإن قُبل منك وإلاّ فاسكت. وقال لعبد الرحمن بن مهدى رضى الله عنه إن فلانا يردّ عن المبتدعة، فقال بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ؟ قالوا لا، بل بالمعقول، قال بئسما صنع، ردّ بدعة ببدعة. وحدث زيد بن أحزم عن وهب بن جرير قال سمعت شعبة رحمه الله تعالى يقول أتيت الحارث العكلى فقلت مامعنى قول النبى صلى الله عليه وسلم إذا تبع أحدكم جنازة فلا يجلس حتى توضع؟ قال أرأيتَ إنْ جئنا ولم يُحفر له ينبغى لنا أن نقوم قياما، فحيث قال لي أرأيت تركته. وروى محمود بن غيلان أيضا عن وهب أيضا عن شعبة، قال أتيت المنهال بن عمرو أسأله عن حديث، فسمعت من منزله صوت طنبور فرجعت ولم أسأله، ثم ندمت بعد ذلك فقلت هلاّ سألته فعسى كان لايعلم به.

ومما أحدثوا البيعَ والشراء على الطريق، وكان الورعون لايشترون شيأ ممن قعد يبيعه على طريق. وكذلك إخراج الرواشن من البيوت، وتقديم العضايد بين يدَى الحوانيت إلى الطريق مكروه. ومما كرهه أهل الورع البيع والشراء من الصبيان لأنهم لايملكون وكلامهم غير مقبول. وحُدِّثت عن أبى بكر المروزى أن شيخا كان يجالس الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى ذا هيْبة، فكان أحمد يقبل عليه ويكرمه، فبلغه عنه أنه طيّن حائط داره من خارج، قال فأعرض عنه فى المجلس فاستنكر الشيخ ذلك، فقال يا أبا عبد الله بلَغك عنى حدَث أحدثتُه، قال نعم طيّنت حائطك من خارج، قال ولايجوز، قال لا لأنك قد أخذت من طريق المسلمين أنْملة، قال فكيف أصنع، قال إما أن تكشُط ماطيّنته وإما أن تهدم الحائط وتؤخره إلى وراء مقدار إصبع ثم تطيّنه من خارج، قال فهدَم الرجل الحائط وأخّره إصبعا ثم طيّنه من خارج، قال فأقبل عليه أبو عبد الله كما كان.

ومما كرهه السلف طرح السنّور والدابة على المزابل فى الطرقات فيتأذى المسلمون بروائح ذلك، وكان شريح وغيره إذا مات لهم سنور دفنُوها فى دورهم. ومِثْله إخراج الميازيب وصبّها إلى الطرقات. وكان الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله وأهل الورع يجعلون ميازيبهم إلى داخل دورهم. وقال إبراهيم النخعى رحمه الله كان أحدهم يكذب مرتين ولايشعر، يقول لاشىء إلاّ شئ

ليس بشىء، يعنى قول الناس للشىء اليسير الذى لايوصف بكثير لاشىء. فاستعظم هذا ورآه كذبا مرتين. وروينا عن عمر رضى الله عنه أنه قال لعوانه كنتُ أرثى لك من العمى فصرت الآن أغبطك به، قال وكيف، قال صرت لاترى بعينيك مبتدعاً كان بالمدينة. وقيل لقتادة تود لو أنك بصير فقال لا، علَى من كنت أفتح عينى؟ بل لو كان فى وقت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كنت أنظر إليهم. وحدثونا عن الفضل بن مهران قال قلت ليحيى بن معين - أخ لى يقعد إلى القُصّاص، فقال انْهه، فقلت لايقبل، قال عظه، قلت لايقبل، أأهجره؟ قال نعم. قال فأتيت الإمام أحد بن حنبل فذكرت له نحو ذلك، فقال قل له يقرأ في المصحف ويذكر الله تعالى فى نفسه ويطلب حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، قلت فإن لم يفعل، قال بلى إن شاء الله تعالى فإن هذا الاجتماع محدَث، قلت فإن لم يقبل أأهجره؟ فتبسّم وسكت. وسأل رجل بشر بن الحارث رحمه الله تعالى عن مسئلة من علم القلوب فتوقف ثم أجابه، ثم سأله مسئلة أخرى من علم المعاملات، فسكت ونظر إليه، ثم قال من تجالس من الناس، فقال منصور بن عمار وابن السّماك، فقال ألاتستحى تسألنا عن علم القلوب ثم تجالس القُصّاص، قال وأعرض عنه حتى قلنا له يا أبانصر إنه لابأس به، إنه من أهل السنّة.

وقد كانوا يكرهون الصلاة فى المقصورة ويرونها أنها أول بدعة أحدثت فى المساجد، ويكرهون تزويق المساجد وكذا القبلة بالزخرف، وتحلية المصاحف وهذا من البدع. وفى الخبر إذا مازخرفتم مساجدكم وحلّيتم مصاحفكم فالدَبار عليكم. وقد كانوا يكرهون كثرة المساجد فى المحلة الواحدة. رُوى أن أنس بن مالك رضى الله عنهما لما دخل البصرة جعل كلما خطا خطوتين رأى مسجدا، فقال ماهذه البدعة، لمّا كثرت المساجد قل المصلون، أشهد لقد كانت القبيلة بأسرها ليس فيها إلاّ مسجد واحد، وكان أهل القبائل يتباينون المسجد الواحد فى الحى من الأحياء، واختلفوا فى أيهما يُصلّى إذا اتفق مسجدان فى محلة، فمنهم من قال فى الصحابة قال وكانوا يجاوزون المساجد أقدمها، وإليه ذهب أنس بن مالك وغيره من العُتُق. وكان الحسن يقول يُصلّى فى أقربهما منه.

ويقال أول ماحدث من البدع أربع - الموائد والمناخل والأسنان والشّبَع. وكانوا يكرهون أن تكون أوانى البيت غير الخزف، ولايتوضأ أهل الورع فى آنية الصُفْر والنحاس. قال الجنيد قال لى سرّى السقَطى اجتهد أن لاتستعمل من آنية بيتك إلاّ جنسك، يعنى من الطين.

ويقال لاحساب عليه.

ومما كرهه السلف تشييد البناء بالجَص والآجر. يقال أول من طبخ الطين هامان، أمره به فرعون. ويقال هو بناء الجبابرة. وكرهوا النقوش والتزويق فى السقوف والأبواب، وكانوا يغضّون من النظر إلى ذلك. وغاب الأحنف بن قيس غيْبة فرجع وقد خضّروا سقفَ بيته وصفّروه، فلما نظر إليه خرج من منزله وحلف أن لايدخله حتى يقلَعوا ذلك منه ويعيدوه كما كان. وقال يحيى بن معاذ من أصحاب الثورى رحمه الله كنت أمشى مع الثورى فى طريق فمررنا بباب منقوش مُزَوّق فنظرتُ إليه فجذبنى سفيان حتى جُزت، فقلت ماتكره من النظر إلى هذا، فقال إنما بنوه ليُنظر إليه، ولو كان كل مَنْ مر به لاينظر إليه مابنوه، فكأنه خشى أن يكون بنظره إليه معاوناً له على بنائه،.

ومما أحدث الناس مما كانوا يكرهونه الثياب الرِقاق مثل القصب، ورقيقُ بُز مصر للنساء والرجال، وهو للنساء أكره وأغلظ، وكانوا يقولون الثياب الرقاق لباس الفُسّاق، ومَنْ رقّ ثوبه رقّ دينه، ويقولون أول النُسك الزيّ. وقال ابن مسعود رضى الله عنه لايشبه الزى الزى حتى يشبه القلب القلب. وخطب بشر بن مروان وعليه ثوب رقيق فجعل رافع بن خديج رضى الله عنه يهزأ به ويقول انظروا إلى أميركم يعظ الناس وعليه ثياب الفُسّاق. ولما جاء عبد الله بن عامر بن ربيعة فى بزّته إلى أبى ذَرّ رضى الله عنه وسأله عن الزهد وأخذ يتكلم فيه، فجعل أبو ذر يضرط به فى كفه، ثم أعرض عنه ولم يكلمه، فغضب ابن عامر وكان قرشيا شريفا وشكاه إلى ابن عمر رضى الله عنهما، فقال له أنت فعلت بنفسك تأتى أبا ذر فى هذه الثياب وتسأله عن الزهد. وفى الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد وصف نساءً يكن فى آخر الزمان، فقال كاسيات عاريات مائلات مميلات على رؤسهن، أمثال أسنمة البقر، يعنى المعاجر والأكوار، لايجدن رائحة الجنة. كان ابن عباس يفسر التبرج أنه منه لبس ما رقّ من الثياب، وقال فى قوله تعالى ولاتبرّجْن تبرّج الجاهلية الأولى، قال كانت المرأة تلبس ثيابا قيمتها كذا وكذا، لاتُوارى لها عورة مما لايجوز فيه الصلاة، لأنه يصف أو يشّف فمكروه لبسه، وإنما كانت ثياب السلف السنبلانى، والقطواني، وعصب اليمن، ومعافرى مصر، والقباطى مثل كسوة الكعبة، والثياب السحولية اليمانية، والكرابيس الحضرمية، وهذه كلها غلاظ كثيفة، وكانت الأثمان من خمسة دراهم إلى ثلاثين درهماً ومابين ذلك. ثم أحدث الناس الثياب الرِقاق من كتّان مصر وقطن

خراسان. وكان طول مئزر رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة أذرع ونصفاً، وثمنه إلى الأربعة والخمسة. وكانت أثمان ثيابهم القُمُص من الخمسة إلى العشرة فيما بينهما من الثمن، ولكن قد جاء فى الخبر لاتقوم الساعة حتى يصير المعروف منكراً والمنكر معروفا . وكان ابن عباس رضى الله عنهما يقول لايأتى على الناس عامٌ إلاّ أماتوا فيه سُنّة، وأحيوا فيه بدعة، حتى تموت السنن وتحيا البدع. وإنما قيل «منكر» لأنه لايُعرف، فإذا خفى الحق فلم يعرف وقع عليه اسم منكر. وكذلك قيل «معروف» لأنه مشهور ومألوف، فإذا فشا الباطل وكثر الجهل حتى أُلِفَ وعُرِف وقع عليه اسم المعروف.

وكذلك قيل يكثر الجوْر حتى يولد فيه من لايعرف العدل. وكان الشعبى رحمه الله يقول يأتى على الناس زمان يصلّون فيه على **الحجّاج**. وهذا قد أتى منذ زمان، لأن **الحجّاج** قد ابتدع أشياء أنكرها الناس عليه فى زمانه هى اليوم سُنَن معروفة وأعمال مستحسنة، يترحم الناس ويغبطون مَن أحدثها، ويحسبون أنه مأجور عليها مشكور له سعيه فيها، إلاّ أنهم لايعرفون أنه أحدثها، فهم وإنْ لم يفوهوا بالصلاة عليه قوْلا، فإن استعمالهم لما أحدَث واستحسانهم لما ابتدع تَرَحُمٌ منهم عليه، والترحم هو الصلاة. وأيضا فإنه ابتدع أشياء من الخير وداخلة فى أبواب الآخرة، ثم ظهر ولاةٌ بعده أحدثوا أحداثا من الجوْر وابتدعوا بدعا من الفسوق فصارت سننا بعدهم، فوجب بذلك الصلاة على **الحجّاج** إلى جنب ما أُظهر بعده. فمما أحدث هذه المحامل والقِباب التى خالف بها هَدْى السلف بالتنعم والرفاهية، وإنما كان الناس يخرجون على الرواحل والزوامل فيضحون للشمس، وينصبون فى سبيل الله تعالى ويُشعثون ويغبرون ويقل أكلهم وتكثر رفاهة الإبل وتقل المشقة والحمل عليها، فيكون ذلك أثوب لهم وأزكى لحِجهم وأدنى إلى السلامة لإبلهم، ويوافقون به سنة نبيهم صلى الله عليه وسلم، فأخرجهم من جميع ذلك بما أدخلهم فيه من بدعته، فصاروا يخرجون فى بيوت ظليلة مع الحْمل على الإبل ما لا تطيق، فيكون سبب تلفها، فيشركونه فيه ويُشركهم بسنّته. وابتدع أيضا هذه الأخماس والعواشر ورؤس الآى وحُمر السواد وخُضره وصفره، فأدخل فى المصحف ما ليس فيه من الزخرف، وكان السلف يقولون جرّدوا القرآن كما أنزله الله تعالى ولا تخلطوا به غيره، فأنكر العلماء ذلك عليه حتى قال أبو رُزَيْن يأتى على الناس زمان ينشأ فيه نشء يحسبون أن ما أحدث **الحجّاج** فى المصاحف هكذا أنزله الله تعالى، يذمُه بذلك، وحتى نَقَل الاختلاف أن بعضهم كان لا يقرأ فى مصحف منقوط بحُمرة لأن بعضهم كان لا يرى القراءة فى مصحف منقوط، كما نُقل أن بعضهم كان يرى شراء المصحف ويكره بيعه، أى وكذلك إذا لم تنقّطه أنت فلا بأس أن تقرأ فيما نقّطه غيرك، وقد كانوا يكرهون أخذ الأجر على تنقيط القرآن لأجل أنه مبتدع. وقال أبو بكر الهذلى سألت الحسن رحمه الله عن تنقيط المصاحف بالأجر، قال وما تنقيطها، قلت يُعربون

الكَلِم بالعربية، فقال أمّا إعراب القرآن فلا بأس به. وقال خالد الحذّاء دخلت على ابن سيرين فرأيته يقرأ في مصحف منقوط وقد كان يكره النُّقَط. وقال فراس بن يحيى وجدت ورقا منقوطا بالنحو في سجن الحجاج فعجبت منه، وكان أول نقط رأيته فأتيت به الشعبي فأخبرته، فقال لي أقرأ عليه ولا تنقطه أنت بيدك. ومنها أنه جَمع من القرّاء ثلاثين رجلا فكانوا يعدّون حروف المصحف ويعدون كَلِمَه شهرا، ولو رآهم عمر أو عثمان أو عليّ يصنعون هذا بالقرآن أي يعدّون حروفه وكَلِمَه لأوجع رؤسهم ضربا. وهذا الذي كرهتْه الصحابة ووصفوا به قراء آخر الزمان أنهم يحفظون حروفه ويضيّعون حدوده. وكان الحجا ج أقرأ القُرّاء وأحفظهم لحروف القرآن. كان يختم القرآن في كل ثلاث، وكان أضْيَع الناس لحدوده. ومنها أنه ابتدع إخراج الحصَى والرمل من المساجد وفرشها بالبواري. كما روي أن قتادة سجد فدخلت في عينه قَصَبة وكان ضريراً فقال لعن الله الحجاج، ابتدع هذه البواري يؤذي بها المصلين. وقد كانوا يستحبون السجود على الأرض والتراب تواضعا لله تعالى وتخشُّعاً وذُلاً. إلى غير ذلك من بِدَعِه التي لم نقصد تعديدها عليه ولا جمعها، فهي اليوم سنن معروفة وشرائع مألوفة مع ما أحدث غيره مما يكثر عدده، مُنْكَرٌ كله عند من عرف المعروف من سيرة المتقدمين وشمائل الصالحين.

وقد قال ابن مسعود رضي الله عنه يظهر المنكر والبدع حتى إذا غُيِّر منها شيء قيل غُيِّرت السنة. وقال في آخر حديثه أكيسهم في ذلك الزمان الذي يرُوغ بدينه روَغان الثعالب. وقد كان أنس بن مالك رضي الله عنه في سنة ثمانين وأيام الحجّاج يقول ما أعرف اليوم شيأ كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلاّ قد غُيِّر إلاّ شهادة أن لا إله إلاّ الله، قيل فالصلاة يا أبا حمزة، قال أوليس قد أحدثوا في الصلاة ما علمتم، يعني تأخيرها والتثويب قبلها وتعيُّن السلام حتى أنهم يضاهون به الإقامة فجعلوه كالسنة، وكان يقول للقرّاء إذا دخلوا عليه مثل يزيد الرقاشي وزياد النميري وفرقد السبخي ما أشبهكم بأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فيفرحون، فيقول نِعْمَ رؤسكم ولحاكم، فهذا كما قال المجنون:

أمّا الخِيام فإنها كخيامهم * وأرى نساء الحي غيرَ نسائِها

وعن جماعة من الصحابة لو نُشِر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورأوكم لما عرفوا شيأ مما أنتم عليه الآن إلاّ الصلاة في جماعة، وفي لفظ آخر إلاّ أنكم تصلون جميعا. وكان الحسن يقول صحبت طوائف لو رأيتموهم لقلتم مجانين، ولو رأوا خياركم لقالوا ما لهؤلاء من خَلاَق. وقال أبو حازم أدركت القُرّاء وهم القراء حقا، ولو كان حامل القرآن في مائة رجل لعُرِف بشدة تواضعه وحُسن سَمته وخشوعه وقد وقره القرآن في سمته، وقد خضعه القرآن وأخشعه، فأما هؤلاء فوالله ما هم بالقُرّاء ولكنهم الجُرّاء. وقد قال بعضهم كنا نشهد الجنازة فلا نعرف

صاحب المصيبة ولا ندرى من نعزّى من شدة حزن القوم. قال وكان أحدهم يبقى بعد شهود الجنازة ثلاثا لا يُنتفع به. وكان الفضيل رحمه الله يحذر من قرّاء زمانه فقال إياك وصُحبة هؤلاء القراء فإنك إن خالفتهم فى شىء كفّروك. وقال سفيان الثورى رحمه الله ما شىء أحب إلىّ من صُحبة فتى، ولا شىء أبغض إلىّ من صُحبة قارىء. وكان كثيرا يقول مَن لم يُحسن يتغنى لم يحسن يتقرّى. وكان بشر بن الحارث يقول لأنْ أصحب فتى أحب إلىّ من أنْ أصحب قارئا، فإياك وصحبة القراء يذمون غيرَ مذموم، وإنْ تركت الصلاة معهم فى جماعة تشاهدوا عليك. كل ذلك لأنهم يجاوزون الحد فى الشىء ويسرعون الإنكار إلى كل شىء، لغلبة الجهل عليهم وقلة مجالستهم للعلماء، ومعاناتهم للعلم، وأنهم موصوفون بدقائق الرياء والتصنّع للعامة فينكرون غير منكَر، ويتعصبون بالبغْضَة والهُجْر فى الشىء اليسير الذى قد يُغتفر مثله، وهم غير موصوفين بمحاسن الأخلاق ولا موسومين بالبشَاشة والانطلاق، إذ فيهم كَزَازة وتغليظ على الناس، ولَزَازة وحَنَق على الأغنياء، حتى كأنهم يأكلون أرزاقهم، وكأنهم يعملون العبادة لهم، وفيهم كثرةُ مَقْت لأهل البِشر والطلاقة، فلذلك قال بعضهم الشريف إذا تقرّى تواضع، والوضيع إن تقرّى تكبّر. وقال آخر السِّفلَة إذا تقرّى أكثر الأمر بالمعروف واعترض على جيرانه فى كل شىء، يعنى أكثر الأمر بالمعروف ليُعرف به، فمن أجل ذلك رفضهم العلماء ونمّهم الحكماء، لأن العلم يُبسِط ويُوسِع وتكون معه الأخلاق الحسنة والآداب والمروآت الواسعة، والعالِم يضع الأشياء فى مواضعها من الناس ولا يجاوز بها ولا بهم المقادير، ويستخرج لهم المعاذير، ومن صفة العلماء الانقباض فى بَسْط خلّق. وقد قال الإمام الشافعى رحمه الله الانقباض على الناس مكسَبة لعداوتهم، فكن بين المُنْقَبِض والمُنْبَسط. وفى الخبر إنكم لا تَسَعُون الناس بأموالكم فليسعهم منكم وجهٌ طلق وخُلُقٌ حسن، وفى لفظ آخر وبِشرٌ وبشاشة، وهذا كله معدوم من القرّاء ولا يعرفونه. وقد جعل الله تعالى لكل شىء قدرا فمن تعدّى حد الشىء فقد أفسده.

وقال بعض السلف قليل التواضع يكفى من كثيرِ العمل، وقليل الورع يكفى من كثير العلم. ومن أخلاق السلف مما تهاون به الخَلَف أنهم كانوا يعدون من النفاق أن يتكلم الرجل فيمن يكلمه، أو يكلم من تكلم فيه، لأنهم كانوا إذا كلّموا أحدا أو سلّموا عليه سلِمت له قلوبهم ولم يتكلموا فيه، وإذا تكلموا فى أحد لبِدعته أو ظهور فِسقه لم يكلموه. وكانوا إذا مدحوا أحدا بقول لم يذّموه بفعل، وإذا ذمّوا واحدا بفعل لم يَمدحوه بقول، لأن فى ذلك لسانين، واختلاف وجهين، واختلاف سرٍ وعلانية. وكانوا يقولون معنى سلام عليك إذا لقيتَه أى سَلِمْتَ منى أنْ أغتابَك وأذمَّك، فكان اختلاف هذا عندهم من أبواب النفاق. وروينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم شرّ الناس ذو الوجهين الذى يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه. وفى حديثٍ آخر مَنْ كان ذا لسانين فى الدنيا جعل الله له يوم القيامة لسانين من نار. وكان بعضهم يقول ما ذُكر عندى إنسان قط

إلاّ مثّلته جالسا فقلت فى غيبته بما يحب أن يسمع. وقال آخر ما ذُكِر عندى رجل إلاّ تصورتُ فى نفسى مثاله، فكل ما أحب أن يقال لى قلته له. فهذه كانت صفات المسلمين الذين يسلّم الناس على أيديهم وقلوبهم، كان أحدهم إذا ذُكِرَ عنده غيره بسوء وقف وتفكر فى شأنِ نفسه، فإن كان فيه مثل ذلك السوء قَطَعه الحياء عن الكلام فى أخيه فسكت، وإن لم يكن ذلك فيه حمدَ الله عز وجل ورَحِمَ أخاه، فشغله الشكر لمولاه إذ عافاه، فهذه كانت سيرة السلف.

ويقال فى بعض كتب الله تعالى - عجباً لمن قيل فيه الخير وليس فيه كيف يفرح، ولمن قيل فيه الشر وهو فيه كيف يغضب. وأعجب من ذلك مَنْ أحبّ نفسه على اليقين وأبغض الناس على الشك. ومن طريقة السلف مما كانوا يشدّدون فيه حب المدح وطلب الحمد، حتى قال بعضهم من أحبّ المدح وكَرِهَ الذم فهو منافق. وقال عمر رضى الله عنه لرجل مَنْ سيّد قومك، قال أنا، قال لو كنتَ كذلك لم تقل. وكتب محمد بن كعب فانتسب فقال القرطبى، قيل له الأنصارى، قال أكره أنْ أمُنّ على الله عز وجل بما لم أفعل. وقال الثورى رضى الله عنه إذا قيل لك بئس الرجل أنت فغضبتَ فأنت بئس الرجل. وقال آخر لايزال فيك خير مالم تر أن فيك خيرا . وسئل بعض العلماء ماعلامة النفاق، قال الذى إذا مُدِح بما ليس فيه ارتاح لذلك قلبه. وكان سفيان رضى الله عنه يقول إذا رأيتَ الرجل يحبُ أن يحبّه الناس كلهم، ويكره أن يذكره أحد بسوء، فاعلم أنه منافق، فهذا داخلٌ فى وصف الله تعالى المنافقين بقوله تعالى ستجدون آخرين يريْدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم، فينبغى لمن أمِنَ فى أهل السّنة أن يخاف فى أهل البِدَع، وهذا مما دخل على القُرّاء الذى نمّهم العلماء مداخل الليل فى النهار. ولعل مغروراً جاهلا يتأوّل الحديث الذى جاء إذا مُدِحَ المؤمن ربَا الإيمان فى قلبه على غير تأويله، ويحمله على غير محمله، فإنما قال ربَا بالإيمان ولم يقل ربا المؤمن، فَرُبّو الإيمان زيادته، وزيادته بالخوف والإشفاق من المكْر به والاستدراج، وفيه طريق للعارفين بأنْ يعلو الإيمان العَلىّ إلى المؤمنِ الأعلى، فيفرح بذلك لمولاه ويُضيفه إلى سيده الذى به تولاّه، فيردّ الصَنعةَ إلى صانعها، ويشهد فى الفطرة فاطرها، فيكون ذلك مدحا للصانع ووصفا للفاطر، لاينظر إلى نفسه ولايعجب بوصفه. وهذه طرقات قد دُرِسَت وانقطع سُلاّ كُها إلاّ مَنْ رَحِم ربك.

باب تفضيل علم الإيمان واليقين على سائر العلوم والتحذير من الزلل فيه وبيان ما ذكرناه

إعلم أن كل علم من العلوم قد يتأتى حفظه ونشره لمنافق أو مبتدع أو مشرك إذا رغب فيه وحرص عليه، لأنه نتيجة الذهن وثمرة العقل، إلاّ علم الإيمان واليقين فإنه لا يتأتى ظهور مشاهدته والكلام فى حقائقه إلا لمؤمن موقن مِنْ قِبَل أن ذلك تقرير مزيد الإيمان وحقيقة العلم

والإيقان، فهو آيات الله تعالى وعهده عن مكاشفة قدرته وعظمته، وآيات الله تعالى لا تكون للفاسقين، وعهده لاينال الظالمين، وعظمته وقدرته لاتكون شهادة للزائغين ولاوجداً للمُبطلين، إذ فى ذلك توهين لآيات الله وحججه، وانتقاص لبراهينه وقدرته، ودخول الشك فى اليقين الذى هو محجة المخلصين، والذين هم بقية الله تعالى من عباده، واشتباه الباطل بالحق الذى هو وصف أهل الصدق الذين هم أدلته عليه من أهل وداده، وهذا من أدل دليل على فضل علم المعرفة على غيره. قال الله عز وجل أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى اسرائيل، وقال الله تعالى بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم، وقال سبحانه وتعالى إن فى ذلك لآيات للمتوسمين، وقال قد بينا الآيات لقوم يوقنون، وقال عز وجل ولِنُبينَه لقوم يعلمون، فهؤلاء العلماء بالله تعالى الناطقون عن الله عز وجل، جعل لهم أنصبةً منه ومكاناً عنده، ولايكون ذلك لمن ليس أهلاً له ولاحقيقاً به، لأنهم آيات الله تعالى وبيناته، وشهوده وبصائره، كاشفو طريقه ومُظهرو بيانه، إذ يقول تعالى ثم إن علينا بيانه، ثم قال تعالى خلق الإنسان علّمه البيان، بعد قوله وكان حقا علينا نصر المؤمنين، مع قوله تعالى وكانوا أحق بها وأهلها، فنصروه بما نصرهم به، وتحققوا بما حققهم منه، وشهدوا له ماشهد لهم عنه، فكانوا للمتّقين إماما، وإلى الهداية أعلاما.

وقال بعض أهل المعرفة مَنْ لم تكن له مشاهدة من هذا العلم لم يَعْرُ من شركٍ أو نفاق، لأنه عارٍ من علم اليقين، ومَنْ عَرا من اليقين وُجِدَ فيه دقائق الشك. وقال بعض العارفين من لم يكن له نصيب من هذا العلم أخاف عليه سوء الخاتمة، وأدنى النصيب منه التصديق به وتسليمه لأهله. وقال آخر من كان فيه خَصلتان لم يُفتح له من هذا العلم شىء: بدعةٌ أو كِبْر. وقال طائفة من أهله مَنْ كان محباً للدنيا أو مصراً على هوى لم يتحقق به. وقال أبو محمد سهل أقل عقوبة من أنكر هذا العلم أن لايُرزق منه شىء أبدا. واتفقوا على أنه علم الصّديقين. وأن من كان له منه نصيب فهو من المقرّبين وينال درجة أصحاب اليمين.

واعلم أن علم التوحيد ومعرفة الصفات مباين لسائر العلوم، فالاختلاف فى سائر العلوم الظاهرة رحمة، والاختلاف فى علم التوحيد ضلال، والخطأ فى علم الظاهر مغفور، وربما كانت حسنةً إذا اجتهد، والخطأ فى علم التوحيد وشهادة اليقين كُفر مِنْ قِبَلِ أن العبّاد لم يُكلفوا حقيقة العلم عند الله تعالى فى طلب العلم الظاهر، وعليهم واجب طلب موافقة الحقيقة عند الله فى التوحيد، ومن ابتدع شيأ رُدت عليه بدعته وكان مسئولاً عنه، ولم يكن حجة لله تعالى على عباده ولاغيثا نافعا فى بلاده، بل كان موصوفا بالدنيا وفيها من الراغبين، ولم يكن دليلا على الله عز وجل ولامن دعاة الدين ولاإماما للمتقين.

وقد جاء فى الخبر العلماء أمناء الرسل مالم يدخلوا فى الدنيا، فإذا دخلوا فى الدنيا

فاحذروهم على دينكم. والخبر المشهور من أحدث فى ديننا ماليس فيه فهو ردّ. وقد روينا عن عيسى عليه السلام وقيل له من أشد الناس فتنة، فقال زلة عالم إذا زلّ زلّ بزلته عالم. وقد روينا معناه عن نبيِّنا محمد صلى الله عليه وسلم مما أخاف على أمتى زلة عالم وجدال منافق فى القرآن. وكان بعض السلف يقول مَثل العالِم إذا زلّ مَثل سفينة إذا غرقت غَرق معها خلقٌ كثير، ومثل كسوف الشمس يصيح الناس يا غافلون الصلاة وإنها عند العامة آية يُفزَع منها.

ويروى فى خبر غريب من غشّ أمتى فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، قيل يا رسول الله وماغِشُّ أمتك، قال أنْ يبتدع بدعة فى الإسلام يحمل الناس عليها. وكان ابن عباس رضى الله عنه يقول ويل للعالم من الاتّباع، وويل للاتباع من العالم. يزّل العالم بزّلة فيتبعه عليها فئامٌ من الناس وتبلغ الآفاق، وما أعلم أحداً أعظمَ جُرما ممن ابتدع فى دين الله عز وجل، فنطق فى كتاب الله تعالى وفى علم المعرفة بما لم يأذن به الله، ثم لم يعبأ بسُنن رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى هو حُجة الله تعالى على جميع خلقه وطريق مُقرّبيه من عباده، فأضلّ بذلك عباد الله عز وجل، فإنّ مَثل من ابتدع فى الدين واتخذ وليجةً دون الكتاب والسنّة وبيّن طريق المؤمنين، إلى جنْب من يُكاثر فى أمور الدنيا وارتكب فيها شهوات الأهواء، كمَثل من اجترح المظالم بين الناس فى الأموال والدماء، إلى جنْب من ظلم نفسه بكسب الذنوب بينه وبين ربه. ومثله أيضا مثل من أذنب وجَحد ذنبه واحتّج لنفسه إلى من أذنب وأعترف بذنبه واعتذر من نفسه، فهو أقرب للعفو وأرجى للرحمة من الآخر، كذلك من اعتّل بالتقصير والتفريط فى العمل ولم ينصح لنفسه، إلاّ أنه أظهر حقيقة العلم ونصح لله تعالى ولرسوله ببيان كتابه وذِكر سُنته، أقرب إلى حسن الإخلاص وأولى بالتدارك فى العافية ممن شرع فى دين الله تعالى وابتدع فى الأمة مايخالف به الكتاب والسنة، هكذا كأنه قد قلب ملةً وبدّل شريعة، فهذا يُولد النفاق فى قلبه حتى يُختَم له به. ومَثل من ابتدع فى الملة مخالفاً للسنة إلى من أساء إلى نفسه بالذنوب، مَثل من عصى المَلِكَ فى قلب دولته وتظاهر عليه فى مُلكِهِ بالإزالة، إلى جنب من عصى أمره وقصّر فى حقه من الرعية.

وقد قال بعض الحكماء ثلاث لايحسُن من المَلِك أنْ يغفرها، مَنْ قلب دولةً من رعيته، أو عمل فيما يوهن المَلِكَ، أو أفسد حُرمةً من حُرَمه. وروينا عن النبى صلى الله عليه وسلم أن للهّ تعالى مَلَكاً ينادى كل يوم مَنْ خالف سنّة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تنله شفاعته. وقال علىٌّ كرّم الله وجهه الهَوى شريك العَمَى. وقال الله تعالى ومن أصدق منْ الله قيلا، ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليُضل الناس بغير علم، ثم قال تعالى أو قال أُوحِيَ إلىّ ولم يُوح إليه شىء، ومن قال سأُنزِل مثل ماأنزل الله، فسوّى بين الكذاب فى الفِرْية على الله تعالى وبين المتشبه

المضاهى للربوبية. وكذلك مِنْ أعظم المنكر بعد هذا إنكار الحق من أهله ورده عليهم بالتكذيب، وقد سوّى الله تعالى أيضا بين التكذيب بالحق وبين ابتداء الكذب على الخالق فى قوله عز وجل ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا، أو كذّب بالحق لمّا جاءه، وقال تعالى فى مثله فمن أظلم ممن كذَبَ على الله وكذّب بالصدق، فقد سوّى بينهما كما سوّى عز وجل بين الصادق بالصدق والمصدّق به، فقال تعالى والذى جاء بالصدق وصدّق به أولئك هم المُتّقُون. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم العالِم والمتعلّم شريكان فى العلم. وقال عيسى عليه السلام بمعناه المستمع شريك القائل. ولكن الله تعالى قد جعل هذه الطائفة من أهل العلم بالله تعالى تردّ على جميع الطوائف من الشاطحين والمبتدعين، أهل الجهالة بالدين والحيدة عن سبيل المؤمنين، بما أراهم الله تعالى من علم اليقين، وبما شهد لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعلم والتعديل فى قوله: يحمل هذا العلِم من كل خَلَف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين. فالغالون هم الشاطحون لأنهم قد جاوزوا العلم ومحوا الرسم فأسقطوا الحكم، والمبطلون هم المدّعون المبتدعون لأنهم جادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق، وافتروا بالدعوى وابتدعوا بالرأى والهوى، والجاهلون هم المنكرون لغرائب العلم المفترون لما عرفوا من ظاهر العقل. كما روينا عن النبى صلى الله عليه وسلم إنّ من العلم كهيئة المكنون لايعلمه إلا أهل المعرفة بالله عز وجل، فإذا أنْطقوا به لم يجهله إلا أهل الاغترار بالله تعالى، ولا تحقّروا عالما آتاه الله تعالى علماً فإن الله عز وجل لم يحقره إذ آتاه. وكل من تأوّل السنن بالرأى والمعقول أو نطق بمالم يسبق إليه السلف من القول أو بمعناه فهو متكلف مُبْطِل، فأهل العلم بالله تعالى يردون علوم المعقول بعلم اليقين، وعلم الرأى بعلم السنة، ويثبتون أهل الآثار، ويؤيدون نَقَلَة الأخبار بما يفصّـــلون من أخبارهم، ويفسّرون من حديثهم، مما لم يُجعل للنقلة طريق إليه، ولم يهتد الرواة إلى كشف منه، بما أشهدهم الله عز وجل واستودعهم ونوّر به قلوبهم ونُطقَهم، فهم ينطقون عن الله سبحانه وتعالى فيما يخبرون عنه، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وجَعلْنا منهم أئمةً يهدون بأمِرنا لمّا صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون. وقد قال بعض العلماء ماتكلم فيه السلف فالسكوت عنه جفاء، وماسكت عنه السلف فالكلام فيه تكلّف. وقال آخر الحق ثقيل من جاوزه ظلّم، ومن قَصَر عنه عجز، ومن وقف معه اكتفى. وقال علىّ رضى الله عنه عليكم بالنَمَط الأوسط الذى يرجع إليه العالى ويرتفع عنه القالى. وهكذا سيرة السلف، أنه لايُستَمع إلى مبتدع لأنه منكر، ولايُرَدّ عليه بالجدال والنظر لأنه بدعة، ولكن يُخَيّر بالسنن ويُحتّج بالأثر. فإن قيل فهو أخوك فى الله عز وجل ووجبت عليك موالاته وإن لم يرجع وأنكر، نُقِضَ بإنكاره وعُرِفَ ببدعته وحقّت عداوته وهُجِرَ فى الله تعالى. وهذا طريق لايسلكه فى وقتنا هذا إلاّ من عُرِفَ فضله وطريقة السلف فيه.

وحُدّثتُ عن إبليس لعنه الله أنه بث جنوده فى وقت الصحابة فرجعوا إليه محسورين، فقال

ماشأنكم قالوا مارأينا مثل هؤلاء القوم، مانصيب منهم شيأ، قد أتعبونا . فيقول إنكم لاتقدرون عليهم، قد صحبوا نبيهم وشهدوا تنزيل ربهم، ولكن سيأتى بعدهم قوم تنالون منهم حاجتكم. فلما جاء التابعون بث جنوده فيهم فرجعوا إليه منكسرين منكوسين، فقال ماشأنكم، قالوا مارأينا أعجبَ من هؤلاء القوم، نصيب منهم الشيء بعد الشئ من الخطايا، فإذا كان من آخر النهار أخذوا فى الاستغفار فتُبَدّل سيآتهم حسنات. فقال إنكم لن تنالوا من هؤلاء شيأ لصحة توحيدهم واتبّاعهم سُنّة نبيهم، ولكن سيأتى بعد هؤلاء قوم تُقَر أعينكُم بهم، تلعبون بهم لعبا وتقودونهم بأزِمّة أهوائهم كيف شئتم، إنْ استغفروا لم يُغفر لهم، ولايتوبون فتُبدّل حسناتهم سيئات. قال فجاء قوم بعد القرن الأول فبعث فيهم الأهواء، وزيّن لهم البدع فاستحلّوها واتخذوها ديناً لايستغفرون منها ولايتوبون إلى الله، قال فتسلّطت عليهم الأعداء وقادتهم أين شاؤا.

وقد قال ابن عباس رضى الله عنه إنّ للضلالة حلاوة فى قلوب أهلها. وقد قال الله تعالى اتخذوا دينهم لعباً ولهوا. وقال تعالى أفمن كان على بينّة من ربه ويتلوه شاهد منه. فالعِلْم رَحِمكَ الله هو الذى كان عليه السلف الصالح المُقتَفى آثارهم، والخلَف التابع المُقتدَى بهديْهم، وهم الصحابة أهل السكينة والرضا، ثم التابعون لهم بإحسان من أهل الزهد والنُهى. والعالم هو الذى يدعو الناس إلى مثل حاله حتى يكونوا مثله، فإذا نظروا إليه زهدوا فى الدنيا لزهده فيها ،كما كان ذو النون رحمه الله يقول: جالسْ من يكلمك علمُه، لامن يكلمك لسانه. وقد قال الحسن رضى الله عنه قبله: عِظْ الناس بفعلك ولاتعظهم بقولك. وقال سهل رحمه الله: العلم يهتف بالعمل فإن أجابه وإلاّ ارتحل. وقد روينا معنى ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قيل له أىُ جلسائنا خير، فقال من ذكّركم بالله تعالى رؤيته، وزاد فى علمكم منطقه، وذكّركم بالآخرة عمله، فأمّا الذى يطلب دنياهم حتى يكون مثلهم فإذا رأوه اغتبطوا بحالهم، فهذا شرٌ منهم، لأنه يدعو إلى نفسه لا إلى مولاه، ولأنه طامعٌ فيهم وهم زاهدون فيه، فالعلماء الذين هم وَرَثة الأنبياء هم الورعون فى دين الله عز وجل، الزاهدون فى فضول الدنيا، الناطقون بعلم اليقين والقدرة، لا علم الرأى والهوى، الصامتون عن الشبهات والآراء، لايختلف هذا إلى يوم القيامة عند العلماء الشهداء على الله تعالى برأى قائلٍ ولابقول مُبطلٍ جاهل، كما روى عن عبد الله بن عمر وعن النبى صلى الله عليه وسلم صلَح أولُ هذه الأمة بالزهد واليقين، ويهلك آخرها بالبُخل والأمل. وقال يوسف بن أسباط إن الأبدال إنما انقطعوا فى أطراف الأرض واستتروا عن أعين الجمهور، لأنهم لايطيقون النظر إلى علماء هذا الوقت، ولايصبرون على الاستماع لكلامهم، لأنهم عندهم جهّال بالله تعالى، وهم عند أنفسهم وعند الجاهلين علماء، فقد صاروا من أهل الجهل وأهل الجهل بالجهل، على الوصف الذى قال سهل رحمه الله إن من أعظم المعاصى

الجهل بالجهل. والنظر إلى العامة واستماع كلام أهل الغفلة أيسر عندهم لأنهم لايعدمون ذلك، لأن العامة لايموّهون فى الدين ولايغرّون المؤمنين ولايدّعون أنهم علماء، لأنهم يتعلمون وبالجهل معترفون، فهم إلى الرحمة أقرب، ومن المَقْت أبعد. وكان أبو محمد أيضا يقول قسوة القلب بالجهل بالعلم أشد من القسوة بالمعاصى، لأن الجاهل بالعلم تارك ومدع، والعاصى بالفعل مقِرّ بالعلم. ويقول أيضا لأن العلم دواء به تصلح الأدواء، فهو يزيل فساد الأعمال بالتدارك، والجهل يفسد الأعمال بعد صلاحها، فهو يزيل الحسنات فيجعلها سيئات، فكم بين مايُصلح الفاسد وبين مايُفسد الصالحات. وقد قال الله تعالى إن الله لايُصلح عمل المفسدين، وقال تعالى إنّا لانضيع أجر المصلحين، فهذا من أدل دليل على فضل العالم المقصّر على العابد المجتهد.

واعلم أن العبد إذا باين الناس فى كل شىء من أحوالهم انفرد عن جمعهم ولم يألف أحدا منهم، وإنْ باينهم فى أكثر أحوالهم اعتزل عن الأكثر منهم، فإن فارقهم فى بعض الأحوال ووافقهم فى بعض حاله خالط أهل الخير وفارق أهل الشر.

باب تفضيل الأخبار وبيان طريق الإرشاد وذكر الرُخصة والسعة فى النقل والرواية

جميع ماذكرناه فى هذا الكتاب من الأخبار عن النبى صلى الله عليه وسلم، ثم عن الصحابة وعن التابعين وتابعيهم، رسمناه حفظاً وسُقناه على المعنى، إلاّ يسيراً اتفق وجوده فى أيدينا، وقَرُب تناوله منا من أخبار فيها طول، فإنّا نقلناها من مواضعها، ومابَعُد علينا فلم نفقه ولم نشغل همتنا به، فما كان فيه من صواب وبيان وتَثَبُّت فمن الله تعالى بحسن توفيقه وقوّة تأييده، وماكان فيه من خطأ وعجلة وهوى فمنا بالسهو والغفلة، ومن عمل الشيطان بالعجلة والنسيان. وكذلك روينا عن ابن مسعود رضى الله عنه فى قضيته التى قضاها برأيه، وقولنا لرأيه تَبَع، وروينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم البيان والتَثَبُّت من الله عز وجل والعجلة والنسيان من الشيطان، يعنى بواسطته وبِقِلّة التوفيق، ولم أعتبر ألفاظ الأخبار فى أكثره، ولم آل عن سياق المعنى فى كله، إذ ليس تحرير الألفاظ عندى واجبا إذا أتيتُ بالمعنى بعد أن تكون عالما بتصريف الكلام وبتفاوت وجوه المعانى، مجتنبا لما يكون به تحريف أو إحالة بين اللفظين. وقد رَخّصَ فى سوْق الحديث على المعنى دون سياقه على اللفظ جماعة من الصحابة، منهم علىّ وابن عباس وأنس بن مالك وواثلة بن الأسقع وأبو هريرة، ثم جماعة من التابعين يكثُر عددهم، منهم إمام الأئمة الحسن البصرى، ثم الشعبى وعمرو بن دينار وإبراهيم النخعى ومجاهد وعِكْرمة رضى الله عنهم، نقلنا ذلك عنهم فى كتب سِيَرهم بأخبار مختلفة الألفاظ. وقال ابن سيرين كنت أسمع الحديث من عشرة، المعنى واحد والألفاظ مختلفة، ولذلك اختلف الصحابة فى رواية الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمنهم من يرويه تاما، ومنهم من يجىء به

مختصراً، ومنهم من يرويه على المعنى، وبعضهم يغاير بين اللفظين ويراه واسعا إذا لم يخالف المعنى، وكلهم لايتعمد الكذب، وجميعهم يقصد الصدق، وكانوا يقولون إنما الكذب على من تعمّده.

وقد روينا عن عُمر أن بن مسلم، قال قال رجل للحسَن يا أبا سعيد، إنك تُحدّث بالحديث، أنت أحسن له سياقا وأجود تحبيرا وأفصح به لسانا منا إذا حدثتنا به، فقال إذا أصبت المعنى فلا بأس بذلك. وقد قال النضر بن شميل كان هشام لحّانا فكسوت لكم حديثه كُسْوة حسنة، يعني بالإعراب، وكان النضر نحوياً ونحن قائلون في جميع ماورويناه أو كما قيل ونحوه وشبهه وبمعناه، كذلك قال ابن مسعود في حديثه. وكان سليمان التيمي يقوله في كل مايحدّث به. وقد كان سفيان رحمه الله يقول إذا رأيت الرجل يشدد في ألفاظ الحديث في المجلس فاعلم أنه يقول إعرفوني. قال وجعل رجل يسأل يحيى بن سعيد القطان عن حرف في الحديث على لفظه، فقال له يحيى يا هذا ليس في أيدينا أجَل من كتاب الله تعالى، وقد رخصّ بالقِراءَة فيه بالكلمة على سبعة أحرف، فلاتُشدِّد. وفي بعض ماورويناه مراسيل ومقاطيع، ومنها مافي سنده مقال، وربما كان المقطوع والمرسل أصح من بعض المسند إذ رواه الأئمة، وجاز لنا رسم ذلك لمعان أحدها أنّا لسنا على يقين من باطلها، والثاني أن معنا حجة بذلك وهو روايتنا له، وأنّا قد سمعنا فإن أخطأنا الحقيقة عند الله تعالى فذلك ساقط عنا كما قال الأسباط، وماشهدنا إلا بما علمنا، وما كنا للغيب حافظين، في قولهم إن ابنك سرق فاخطؤا الحقيقة عند الله تعالى، إلا أنهم كانوا معذورين لوجود الدليل وهو شهادتهم للصاع مستخرج من رَحْل أخيهم، والثالث أن الأخبار الضعاف غير مخالِفة الكتاب والسنة لا يلزمنا ردّها بل فيهما مايدل عليها، والرابع أنّا متعبدّون بحسن الظن، منهيون عن كثير من الظن، مذمومون بظن السوء، والخامس أنه لايتوصل إلى حقيقة ذلك إلا من طريق المعاينة ولا سبيل إليها، فاضطررنا إلى التقليد والتصديق بُحسن الظن بالنَقَلَة مع ماتسكن إليه قلوبنا وتلين له أبشارنا ونرى أنه حق كما جاء في الخبر، وأيضا فإنه ينبغي أن نعتقد في سلفنا المؤمنين أنهم خير منا، ثم نحن لانكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولاعلى التابعين، فكيف نظن بهم أن يكذبوا وهم فوقنا، على أنه قد جاءت أحاديث ضعاف بأسانيد صحاح، فكذلك يصلح أن نورد أحاديث صحاحا بسند ضعيف، لاحتمال أن يكون قد رُوِىَ من وجه صحيح إذ لم نُحط بجملة العلم، أولأن بعض من يُضعّفه أهل الحديث يقوّيه بعضهم، وبعض من يَجرحه ويذمُّه أحد يَعْدِله ويمدحه آخر، فصار مختلَفاً فيه، فلم يَرِد حديثه بقول واحد دون مَنْ فوقه أو مثله، أو لأن بعض مايُضعّف به رواة

الحديث وتُعلّل به أحاديثهم لايكون تعليلا ولاجرْحا عند الفقهاء ولاعند العلماء بالله تعالى، مثل أن يكون الراوى مجهولا لإيثاره الخمول وقد نُدب إليه، أولقلة الأتباع له إذ لم يقم لهم الأثرة عنه، أوينفرد بلفظ أو حديث حفظه أو خُصّ به دون غيره من الثّقات، أو يكون غير سائق للحديث على لفظه، أو لا يكون معتنيا بحفظه ودرسه. وقد يتكلم بعض الحُفّاظ بالإقدام والجراءة فيجاوز الحدّ فى الجَرح ويتعدى فى اللفظ، ويكون المتكلم فيه أفضل منه وعند العلماء بالله أعلى درجة، فيعود الجرح على الجارح، أو يكون رأىَ عليه لباسا أو سمع منه كلاما يَجرحُه عند الفقهاء، علّله به بعض القرّاء من الرواة.

وبعض من يضعّفه أصحاب الحديث هو من علماء الآخرة ومن أهل المعرفة بالله تعالى، وله فى الرواية والحديث مذاهب غير طريقة بعض أصحاب الحديث فيعمل فى روايته بمذهبه، فلا يكون أصحاب الحديث حجة عليه إلا كان هو حجة عليهم، إذ ليس هو عند أصحابه من العلماء دون أصحاب الحديث ممن ضعّفه. وقال بعض العلماء: الحديث وإن كان شهادة فقد وسّع فيه بُحسن الظن كما جوّز فيه قبول شهادة واحد، أى للضرورة، كشهادة القابلة ونحوها. وروينا معناه عن الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه. والحديث إذا لم ينافه كتاب أو سنّة وإن لم يشهدا له، إنْ لم يخرج تأويله عن إجماع الأمة فإنه يوجب القبول. والحديث الضعيف عندى آثر من الرأى والقياس، وهذا مذهب الإمام أبى عبد الله أحمد بن حنبل رضى الله عنه. والحديث إذا تداوله عصران أو رواه القرون الثلاثة أو دار فى العصر الواحد فلم ينكره علماؤه، وكان مشهوراً لاينكره الطبقة من المسلمين، احتمل ووقع به حُجة وإنْ كان فى سنده قول، إلاّ ماخالف الكتاب والسُّنن الصحيحة أو إجماع الأمة أو ظهر كذبُ ناقليه بشهادة الصادقين من الأئمة.

وقال وكيع بن الجرّاح ماينبغى لأحد أن يقول هذا الحديث باطل، لأن الحديث أكثر من ذلك. وقال أبو داود قال أبو زرعة الرازى قُبض رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عشرين ألف عين تطرف، كل واحد قد روَى عنه ولو حديث، ولو كلمة أو رواية، فحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر من أن يُحصى. وذكر رجل عند الزهرى حديثا فقال ماسمعنا بهذا، فقال أكُلُّ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم سمعت، قال لا، قال فثلثاه، قال لا، قال فنصفه، فسكت. وقال عدّ هذا من النصف الذى لم تسمعه. وقال الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه كان يزيد بن هرون يكتب عن الرجل وهو يعلم أنه ضعيف، وكان له ذكاء وعلم بالحديث. وقال إسحق بن راهويه قيل للإمام أحمد بن حنبل هذه الفوائد التى فيها المناكير ترى أن نكتب الجيد منها، فقال المنكر أبداً منكر. قيل له فالضعفاء، قال قد يُحتاج إليهم فى وقت، كأنه لم ير بالكتابة

عنهم بأسا. وقال أبو بكر المروزى عنه إن الحديث عن الضعفاء قد يحتاج إليه، ومما يدلك على مذهبه فى التوسعة، أنه أخرج حديثه كله فى المسند المأثور عنه، الذى رويناه عن أشياخنا عن ابنه عبد اللّه عنه، ولم يعتبر الصحيح منه. وفيه أحاديث كثيرة يعلم الثقات أنها ضعيفة وهو أعلم بضعفها منهم، ثم أدخلها فى مسنده لأنه أراد تخريج المسند ولم يقصد تصحيح السند، فاستجاز رواياتها كما سمعها. وقد كان قَطَع أن يحدّث الناس فى سنة ثمان وعشرين وتوفى فى سنة إحدى وأربعين، فلم يسمع أحد منه فى هذه المدة إلا ابنه عبد اللّه وابن منيع جزأً واحداً بشفاعة جَده أحمد بن منيع. وحدثونا عنه أعنى الإمام أحمد قال، كان عبد الرحمن ينكر الحديث ثم يخرج إلينا بعد وقت فيقول هو صحيح قد وجدته. قال وأما وكيع فلم ينكر، ولكن يقول إذا سئل عنه لا أحفظه.

هذا كان مذهب الورعين من السلف، وقد كان بعضهم يقول كنا نترك مجالسة من كان كلامه فى التضعيف. وقال بعضهم فى تضعيف الرواة إنْ خلصت نيتك، يعنى إن أردت اللّه عز وجل والدين بذلك، لم يكن لك ولاعليك. فهذه الفصول الذى ذكرناها هى أصول فى معرفة الحديث، وهو علم لأهله وطريق هم سالكوه، ثم حدّث قوم لم يكن لهم علم يختصون به، ولاحال من علم يوصفون به، ولاشُغل من عبادة تقطعهم، فجعلوا لنفوسهم علِماً تشاغلوا به وشغلوا من استمع إليهم فصنّفوا كتبا، وأخذوا يتكلمون فى نَقَلة الأخبار بالتعليل وتَتَبُع العِثار، فطرقوا لأهل البدع إلى رد السنن وإيثار الرأى والمعقول عليها لما يرون من طعنهم فيها، واغتبطوا بالقياس والنظر لما وجدوا من زهدهم فى السنّة والخبر، سيما فى زمانك هذا.

والأحاديث فى الترغيب فى الآخرة، والتزهيد فى الدنيا، والترهيب لوعيد اللّه تعالى، وفى فضائل الأعمال وتفضيل الأصحاب متقبلة محتملة على كل حال، مقاطيعها ومراسيلها لاتُعارَض ولاتُرَدّ، وكذلك فى أهوال القيامة ووصف زلازلها وعظائمها لاتُنكر بعقل، بل تُتَقبل بالتصديق والتسليم. كذلك كان السلف يفعلون، لأن العلم قد دلّ على ذلك والأصول قد وردت به، وقد روينا مَنْ بلغَه عن اللّه فضيلة، أو عن رسول الله صلى اللّه عليه وسلم، وعمل به أعطاه اللّه ثواب ذلك، وإن لم يكن ما قيل، والخبر الآخر: من روى عنى حقاً فأنا أقوله وإن لم أكن قلته. ومن روى عنى باطلا فإنى لاأقول بالباطل. وفى كل ما رسمْناه من هذا الكتاب نقول الله أعلم وأحكم وعلمه المقدم، وعنده حقائق العلوم، وإليه ترجع الأمور، وماشاء الله كان، واللّه المستعان، ولاحول ولاقوة الا باللّه. وهذا آخر كتاب العلم وتفضيل العلوم ووصف طريق السلف ونشر ماأحدث بعدهم الخلف.